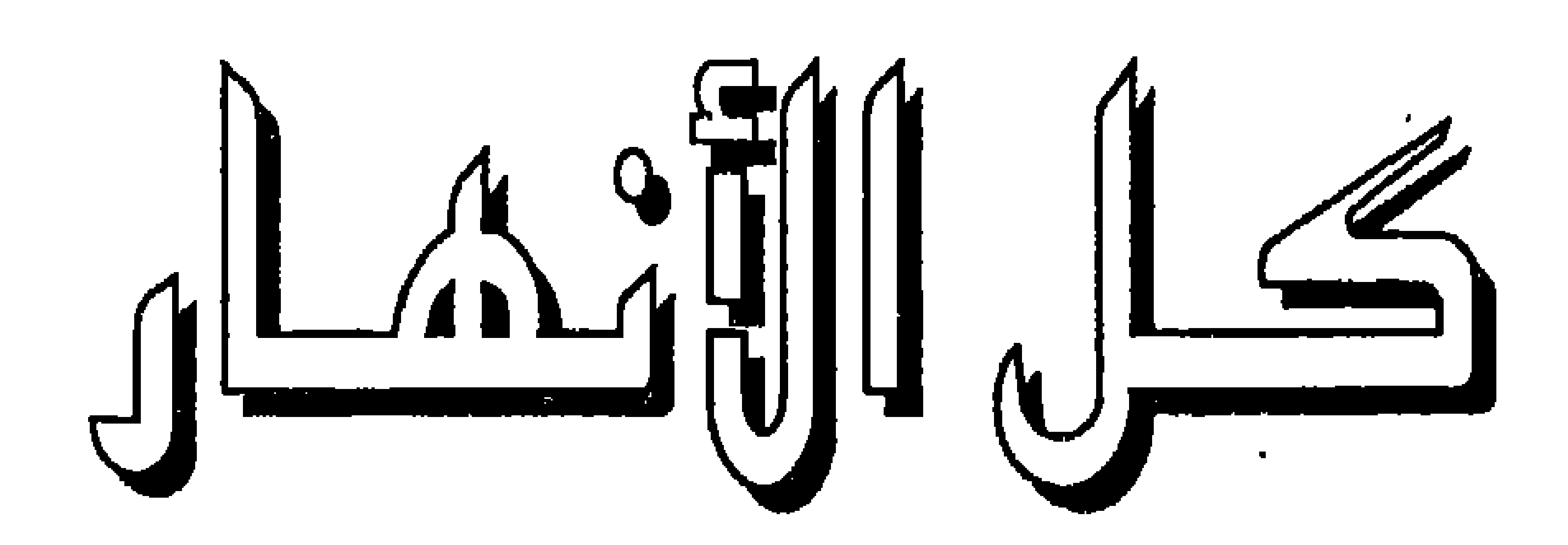
فاروق خورشيد

كل الأنهار

مجموعة قصصية

الهيئة المصرية العامة للكتاب



مجموعة قصصية

فاروق خورشيد



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٧

تصميم الغلاف :

والإخراج الفنى والتنفيذ :

صبرى عبد الواحد

إهداء

إلى عمرو

الابن والصديق

أردتني أن أكتب عن الناس الذين نعايشهم

لا عن أبطال السير الشعبية وحدهم

فهاك صورة مَنْ نعايش من الناس..

فاروق خورشيد


كل الأنهار



النار فى داخلى، وأنا احترقت، وأصرخ:

النار.. النار.

ولا أحد يعبأ ولا أحد يريد أن يعرف معنى الصرخات ـ وكيف، وهو فى مكانه من طابور السجائر، أو طابور الجمعية التى تبيع الدجاج، أو طابور الخبز.. أو أى طابور ـ فقط وحدى أنا أصرخ.. النار فى داخلى، وأنا احترقت، ولا أحد يسمع، وأعود أصرخ من جديد.

النار.. النار.. ولا أحد يسمع..

بدأت النار من الموقد الغازى، لم يكن محكما تماما، وإنما كان (المحبس) فيه ينفس الغاز، ولم أكن أعرف هذا ـ فما تعودت أن أشغل بالى بمثل هذه الأشياء.. الرجل يأتى مفتول العضلات أزرق الحلة، يحمل الأنبوبة فوق كتفه فى شجاعة، لا أعرفها، ولا أتصورها فى أحد، ولهذا أعطيته أكثر مما يطلب، فهو شجاع، يلبس بذلة زرقاء، وعضلاته بارزة من القميص الداكن، وعلى وجهه دائما ابتسامة راضية واثقة عظيمة.

وقالت: لا تغضب، فالرجل يريدني زوجة، ولابد أن أحدد مستقبلي، والمسألة أن أوافق فأصبح زوجته، وهو كما ترى، الزوج الذي ترضاه واحدة مثلي.

يامثلي. ما أنت وما مثلي، وما المثل يا صاحب، ما المثل. هل هو التكرار أو هو الإعادة ألف امرأة مع ألف رجل، صنعوا مثلي جميعا، وألف وألف مثل.. ومر الجميع من بوابة الأبد الخالد، ليصبحوا نحن الوجود والعالم، وما نعرف، مجرد جماجم تملأ بطن الأرض، الذي يبتلع ولا يشبع، ويبتلع ولا يشبع، ولن يشبع أبدا، يا مثلي، كم مثلي كطبعات الكربون تتابع وتوجد وتعيش وتغضب وتتنفس، ثم تموت، ثم إلى الأرض التي تستلم عصارات الجسد، والجماجم والهيكل العظمي.. وهذه المومياوات التي تستخرج من قبورها القديمة ليشتريها السواح.. قال لي الراحل ميخائيل رومان - كنت في الأقصر أجلس على تل من المومياوات فيأتي السواح يشترون ومن غرفتي، ألف ألف مومياء - مومياوات ومومياوات، وكأن كل ما يفعله العالم من أول السنين وحتى الآن أن يشتري المومياوات وأن يبيع المومياوات، ولا أحد يستطيع أن ينتهي من استخلاص المومياوات من القبور القديمة.. فكل من كانوا يعيشون في بلادنا، لم يكونوا يدفنون إلا ويحنطون ويتحولون إلى المومياوات .. حقيقة واضحة جعلت كل للموتى يعيشون بعد الموت بنفس المثل الذي يعيش به بعد الموت أصحاب النبالة والقداسة والقيمة والوجود. عند بعض الشعوب الأخرى.. كل يوم يا أخي مومياء تباع، تخرج من تحت غرفتي وأمام ابصاري، ووجودي - وضياعي لنفسي،

واحد من أجدادى يباع ـ لم أحسست بهذا؟ لست أدرى، فقط أدركت أننا نحن ـ بعد أن متنا ـ عبيد رق جديد، مومياوات يشتريها الأثرياء، ويضعونها فى بيوتهم الفخمة فى لندن وباريس ونيويورك وقلاع كاليفورنيا، ومتاحف فى تكساس، فقط نظل كما نحن أجساداً مطلية بالقار وحولنا الكتان وفوقنا الصخر فوق الخشب، وربما فوقنا أكفان الصمت أيضاً ولكننا رقيق العصر الجديد..

ولا يعرف أحد، كيف متنا، وجدنا مومياوات ولا يعرف أحد، كيف تكفنا، وحنطنا، وجدنا مومياوات ولا يعرف أحد شيئاً أربعون يوما تمر بها من العذاب الذى هو فوق كل عذاب بعد أن نموت ونوضع فى المعبد المقدس، فوق الرخامة الأبدية الخالدة، ويشق الكهنة بطوننا ويخرجون الأمعاء فإذا هى فى آنية أخرى مقدسة أو قريبة من أن تكون مقدسة، وكل العصارات تنزف وتضيع، وتنزف وتضيع، والصلوات تتصاعد من أرجاء المعبد، ورائحة البخور، وقدس الأقداس محرم على الناس، لا أحد يقترب من قدس الأقداس، لا أحد يقترب ـ والنار أكلتنى، وصرخت ولم يغثنى أحد.. ودوامات ودوامات .. واختفى الألم والعذاب، ووقفت أرقب المشهد كله من بعيد.. رجل يوضع جسده، فوق المائدة الصخرية، أو من كان رجلاً يوماً ما، والغشاء المغلف للأمعاء قد فتح، وبخور وبخور وصلوات وترتيلات، وكل شيء يستخرج من تحت الغشاء، ويجمع إناء وبخور وتراتيل قدس الأقداس نحن نصمت فلا كلمة ولا همسة.. والصوت حرام، والأنفاس غير المعقمة بالأقنعة الكتانية حرام، وكل شيء فى قدس الأقداس حرام والتراتيل والصلوات ..

والمعزون فئة فئة والثياب السوداء، ونساء يلطخن وجوههن واجسادهن بالنيلة من أرض النيل وطميه، وصراخهن يقض مضجع من سبقنا من أموات، ويؤرق سلام الميت الجديد.. وسط كل هذا العديد، والطقس المجيد ،هو ميت، يذهب إلى عالم الموتى.. الله حى قيوم، ولا إله إلا الله محمد رسول الله. .الله الله ولا إله إلا الله.. وعبدك وفقيرك عبدالله والصلاة والسلام على خير الأنام، محمد رسول الله.

ثم ندخل اللحد والقبر ويهيل صاحب القبور التراب وحوله التراتيل والصلوات وصراخ النساء ودمعات فى عيون الرجال، ثم يرش الماء، ويذهب كل إلى طريقه، كل إلى طريقه. وأبقى وحدى فى القبر العتيق، لا يصاحبنى صوت ولا نأمه، ولا حتى تراتيل المأجورين ممن يصرخون حول أى قبر، وأى قبر.. وكل شىء بأجر إن لم يكن من أهل الأرض، فالثواب عند رب السماء كل شىء صامت لا أسمع ولا حتى صراخ النساء من أقاربى حول التراب المنهال فوقى، ولا حتى أنفاس الاصدقاء وبكائهم المكتوم .. لاشىء الا الصمت.. والسكون، والوحدة، والسواد ،وأن كل شىء انتهى.. الغاز تسرب من الأنبوبة ثم اشتعلت النار، وأكلتنى، وصرخت.. وحاصرتنى وصرخت ووضعونى على المائدة الرخامية وصرخت، ثم القبر وسكونه وصرخت. ولم يسمع احد.. ويمر عام وعام، ومائة عام ومائة عام والصمت هو الصمت المخيف. ربما دخل وافد جديد ربما فتح القبر ليدخل ميت لا نعرفه، ربما لا نرضاه، ولا ربما لا نقر وجوده بيننا، ولكنه ميت يضاف الى المقبرة جثة جديدة ومومياء توضع الى جوار مومياوات قديمة، ثم تقفل

المقــبــرة من جــديد، وتمر السنون.. وبين حين وحين تســمع نفس الأناشيد ونفس الأصوات، وكأن شيئا لم يتغير، وكأن العالم لم يهتزئ، وكأن الكون هو كما هو، أصوات النساء المفجوعة فى شىء ما، رجل ما أو امرأة ما، أو ولد مـا.. ونفس التراتيل المعبدية الجنائزية ونفس اللوعة، ويقفل علينا القبر من جديد..

وتمر الأعوام.. عشرات، مئات، ألوف، ماذا نعرف نحن؟ ونحن داخل هذه الحجرة المظلمة المعتمة المخيفة الصامتة، الرطبة الوجود والكينونة.. وفـوقنا تمر طرق وتوجـد عـمـارات، وضـحكات وأطفـال، وحياة وصرخات امرأة فى حضن رجل، وصرخات رجل فى غضبه من امرأة مارقة وعويل امرأة وضحكة رجل مخمور.. وبوقات سيارات وصليل أجراس.. وتكبيرات من مئذنة وصلصلات أجراس كنيسة وأن الوجـود يسيـر، وانه حق وعـدل ـ ونحن هنا، نسـمع مـجـرد أصـداء، أصـداء.. ولكن ابدا لن انسى لحظة فـتح الكاهن صدرى وأخـرج قلبى يجسه ويعزله، اليد قذرة لم تطهرها سوائل المطهرات، فهو مستهتر بى وبمثلى، كم صدر فتح، كم قلبٍ أخرج هو وحده الذى يعرف، ثم يطلق البخور، ويأمر.. فإذا الكل فى تراتيل تملأ المكان والوجود كله.. ثم يفتح بطنى ويصب القــار.. آه. النار فى داخلى، وأنا احـتــرقت .. آه .. وأصرخ.. النار.. النار.. آه

ولا أحد يعبأ، ولا أحد يغيث فأنا مت، النار تأكل وجودى.. وفى يد الكاهن قمعه العظيم يضعه فوق فمى، ومن خلاله يرسل القار الملتهب، وسوائل نارية، وأنا فى داخلى احترق لا الصرخات نفعت ولا

أحد يغيث.. النار.. النار.. والكل لا يسمع ولا يغيث فما جدوى الشكوى بعد كل هذه الأعوام والكاهن يرتل الأناشيد، والكل حول الطاولة الرخامية التى أرقد فوقها يغنى، وبخور وبخور، وشموع وشموع، ويموت كل ما فى داخلى، وتجف العصارات ويتصلب عمق وجودى كله وتدور حولى التراتيل، والكل يصلى، واللغة هى اللغة لم أعرفها من قبل ولكنى أفهمها الآن.. يا ابن الأرض العاهرة، التى ملأت الكون بأبناء العواهر من امثالك، تعود الآن، إلى حضن العاهرة الكبرى، أمنا الأرض الرطبة التى تحتويك وتحفظك، من شمس النهار، من رقة القمر، من الهواء، من قيظ شمس الصيف، من عاصفة البحر الهائج، من موجه الرطب بالأنفاس الملحية المعطرة من رفرفات أجنحة طيور الماء المختلفة، من قناديل الليل المنتشرة عبر سطح ماء البحر الملحى القريب من الشاطىء، ثم نم وتعفن نم فى أمان فقد أخرجنا وصهرنا ما بداخلك، كل ما يفنيك،ولم نبق الا الشكل والجوهر . ما أنت الا هيكل ومضى، وهذا ما ابقيناه للأجيال القادمة إنك إنسان مر وعبر.. من هذه القناة، مر وعبر .. ويصب القار فى داخلى، يصب القار وجسدى فوق الطاولة الرخامية المقدسة، ورائحة البخور، وتراتيل الكهنة، واننى فى حمى الموت العظيم..

وتمر أعوام وأعوام.. وتتراكم حولنا عظام وعظام ونسأل كل وافد جديد، من هو ولماذا جاء، ثم يفتر حماسنا، فلا نسأل، نحن مجرد مومياوات، وسط مومياوات أخر، ويقينا كنا هنا، ونحن مجرد أشياء ساكنة لا تتحرك، ولا تقدر على الحركة، ولا يحركها أى شيء..

الحروب فى الخارج، والقتل والموت، والعذاب الجماعى وان الناس فى ضنك عظيم، وأن الحياة فى محنة أعظم وأن كل يوم يمر يعنى أن الإنسان يصغر ويتضاءل في عالم الأحياء.. ما لنا نحن بكل هذا ـ كل شيء ساكن هادئ عظيم. كأن الوجود كله قد تركز فى هذه اللحظات الصامتة الهادئة الرطبة الدائمة.

وتمر أعوام وأعوام..

ولا شيء الا المزيد من الجثث والرطوبة والصمت وألقيت مومياوات إلى جوار مومياوات ويزداد العدد ونحن لا نحس أن هذا العدد المتزايد يساوى شيئاً، نحن الأحفاد وأشباه الأحفاد ، ثم كيف يمكن لك أن تخترق حاجز الصمت العجيب الذى يحتويك؟

من قبل كان يسمح لك أن تخرج كهلام أو كأى شيء فى عوالم تعرفها، الحانات وبيوت الأصدقاء وغرف النوم التى أجرتها يوما ثم هجرتها يوما، ولكن النساء اللاتى عرفتهن انقضى زمانهن ورحلن من زمن، حتى الخمارات أعتابها تغيرت، حتى الشاربين للكئوس كلامهم وحكاياتهم تغيرت ، لم يعد لما تعرف من معان أو قيم أو فكر أو وجود .. غلاظ من يملأون بارات الأمس، غلاظ من يملأون شوارع الأمس، غلاظ من يعيشون على أصداء الأمس.. وعد إلى قبرك، عد، عد مسرعاً، عد فأنت مومياء أنت مجرد جسد قرأت عليه التعاويذ وصب فى داخله القار وأخيط جسده بالكتان، وحوله الصخر والخشب، وماء.. أى المعانى تريد؟ وقد سقط المزهر، وضاع صوت الدف ـ أى المراقص تريد؟ وقد جف وسط الراقصة، وسقط ثوب الرقص، أى المعانى تريد؟

قد تضجر الفلاسفة من المعنى وسقط المنطق - يا أنت رحلتك مخيفة.. عد، عد إلى قبرك، عد فلا مكان هنا إلا للأجساد المتحركة، والنفوس المتحركة، هى لا تعرف الحياة، ولكنها تعيش حياة ما، تعيش حياتها هى، فأى شيء تريد؟ عد إلى المقبرة إلى وجودك كمومياء، كرمز للموت المصرى العنيد الباقى الخالد، عبر كل التعبيرات والتحولات والسفالات، والتعاسات والجهالات وإنهم لا يعرفون ان الكل الى مومياء يصيرون ولكن الكل - يا أخ - إلى التراب، ومن التراب كانوا ويكونون.

ولكننا لسنا ترابا، نحن مومياوات، حفظها القار وسحر الكهنة من العدم من أن تتحلل وتضيع تلفنا شرائح الكتان ويحتوينا صندوق ما .. لا أعرف أى صندوق، مجرد صندوق من خضب، من صخر من صندل، من لفائف وأعشاب - هو مجرد شيء يحتوينا لنبقى وسط القبور، والله والله، ما أبشع أن أبقى وسط القبور، ومع القبور، وحولك القبور.. وتمر أعوام وأعوام ومئات الأعوام..

وماذا فى أننا ميتون لنعيش وسط الموت والعدم والقبور.. لا تعجبك حكاية أن نعيش هذه .. إذن لصالحك، وحتى لا تغضب، شئنا أم أبينا، وشئت أنت أم أبيت نحن نوجد، وسط القبور فى داخلها، ويتسلل اللصوص، كانوا يعرفون أننا بعد أن نموت نصبح شيئاً ما عند من يحبون المال، نحن متنا وانتهى الأمر، ولكن اللصوص دخلوا قبرنا وانتهكوه، وتسللوا واحداً مرة ثم واحداً وأكثر، ثم أغلقوا القبر من جديد وهم يحملون مومياء وراء أخرى، ولم يتكلم أحد فلا يستطيع أحد منا أن يتكلم يرقب ويسمع ويصمت، ويحس ما يدور حوله ويسكت، فقط هو

يعرف.. كيف؟ لا يدرى أحد منا كيف.. الحب يأتى من عالم غريب، موجات، موجات، فيمر بنا سريعاً ومتعجلاً، ولكن الكثيرين منا يتلقفون ما يسقط من جناح صقر أو من بين ريش صقر أجنحة النسر بعض حب من عالم قديم، على قسوته هو بعض حب قديم، وتمر حولنا حكايات، وكأن شيئا لم ينقض، وكأن العالم مامات.. ولكنها لحظات رهيبة صارخة بالحب، لا يقاومها أحد منا وإنما نتركها تعبر وتمر، وتعبر وتمر.. تمس بقايا الأجساد فإذا هى تقعقع بعظامها، وما بقى لها ثم تستقر، والحب هو الحب، وكأن الموجة، جرفت كل اليأس وكل التعاسة.. فهى موجة حب.. لا يعرف أحد من أين جاءت.. ولا كيف جاءت ولكن اللصوص يتسللون، ويحملون التوابيت والمومياوات ويخرجون.. ويتقلص وجودها، فهم يحبون المومياوات القديمة التى استمرت كثيراً وطويلاً عبر الزمن - ويحملون كل يوم مومياوات ومومياوات - ثم يذهبون - وكنت أقف بعيداً وسط الصف الطويل، وضعنى أولادى هناك عند الحافة فكان اللصوص يحضرون ويأخذون ويعبرون، دون أن يلتفت أحد لى ولا إلى وجودى أو إلى مومياتى..

وهذا حدث فى حياتى، عشت دائماً فى الظل، لا ينزعج من وجودى أى أحد، ولا يحفل بهذا الوجود أحد، كلمات هى كل حياتى والكلمات فى عالم الموتى، أقل الصناديق، وأرخص التوابيت لمثلى، فما مثلى، والعالم العظيم المتضخم بالمال والثروة والجاه.. وماذا فى أن رجلاً كان يقول كلاماً، فى عالم المومياوات لا حرمة للكلمات، الكلمات تحملها توابيت أخرى فى عالم آخر، هى كتب تطبع، ويتداولها

الناس جيلاً، ثم ينسون، ونحن هنا ننسى أبد الآبدين.. ويمر اللصوص كل مرة عند تابوتى القصير فيحملون التوابيت من حوله ويعبرون.

يا أجيال التعاسة، كم أود أن يسرقنى أحد، أن يلتفت إلى أحد، أن يخرجنى أحد من هذا الصمت المطبق المقيت..

وقال لص لصاحبه:

ـ ما لنا ولهذة الجثة، هى لأديب..

قال صاحبه:

ـ اتركها ولنبحث عن صاحب مال وجوهر، فهذه المومياوات تحمل إلى جوار الجثة الذهب وفصوص الجوهرأما هذا، فما لنا وله..

قال صاحبه:

ـ انظر هنا مومياة تاجر..

صاح صاحبه:

ـ وانظر هذه موميا سباك

وانطلقا وتركانى وحيدا ولا أدرى ماذا كنت ساعتها، أريد أن يسرق جثمانى أم ن أظل فى مكانى، فما لى أنا ومومياوات التاجر والسباك ومالى أنا والذهب والجوهر..

حين حنطونى لفونى بأوراق البردى التى تحوى أفكارى ومؤلفاتى، وما قدمت من قصص وحكايات فما هى وهؤلاء اللصوص..

هم يبحثون عن الفص المتألق عند حافة أصبع التاجر.. فهذه مومياوات عظيمة، أو عن السلسلة الذهبية حول عنق السباك، فهذه مومياوات عظيمة، ولكن ماذا تملك أنت من حطام التجارب سوى أوراق، وما الأوراق عند اللصوص، لا شيء.. فلتمكث مكانك، ولتمكث مكانك والصمت الصمت، ولا شيء.. مومياوات جديدة تجيء، والصراخ والتعاسة ورائحة الموت الأبدية واناس يصرخون وداعاً لميت جديد، وبعد حين هم يجيئون والكهنة يشقون الصدر، ويدفعون فى أعماقه الأقماع، ثم يندلق القار النار الملتهب.. والنار .. النار .. مع كل وافد، كنت أحس انى ألتهب أصعق من جديد بالقار المغلى المخيف..

ويقول واحد منا:

ـ وما الفائدة، النار تسلمنا إلى النار.

وأصمت، فعند حافة القبر يرتفع صراخ وعويل وامرأة تصيح:

ـ يا سبعى، يا سندى

ثم تبوس التراب..

ويصرخ المأمورون والمأجورون بآيات القرآن، ويرتل ويرتل، ويرتل، ويرتل ـ والصراخ يضيع ويرتل، ويرتل، وأنا أضيع، ويرتل، ويرتل، وكل شيء يضيع..

وحملنى اللصوص..

والله والله، اهتز القبر وتضرعت الظلمة بأشياء كالدوامة الحمراء الخضراء الزرقاء، كل شيء يهتز، وأذرع فتية تخرجني من حيث استقر بي المكان مئات السنين، وأصوات من بعيد قعقعة عظام وصرخات احتجاج من قانين، ولا معنى لها.. وأبواق سيارات في طريق يتجنبه من يحملون التابوت، ثم صمت، وصمت.. أنا في وسط صندوق عظيم مهول، يحتويني وينسيني من أنا ولا متى كنت، ولا كيف أكون..

ثم يصمت كل شيء، وتمر لحظات، وربما ساعات، وربما سنون، فمثلي لا يذكر الزمان، ولا يعرف مقاييس أهل هذا الزمان.

لا صوت ولا نأمة فأنا وحدي، أجل أخيراً أنا وحدي، لا أشعر بالعالم الصاخب الذي رحلنا منه، ولا صوت همس فحيح القبور، بل أنا أرتفع في الجو، ثم أهبط في ظلام بعد هذا عظيم.. غريب أنا في بلد غريبة أعرف هذا من لفح الهواء ومن حركة النسيم، ومن جرس الأصوات.. غريب أنا في بلد غريبة، مات الحب، وضاع صوت الحياة، وحل ظلام الغربة..

ولا كلمة حب، ولا نأمة تعيدني إلى الماضي، وإلى حس حياة أعرفها من زمن .. يا أيها التابوت الغريب، يا من تحمل موتانا من زمن، ماذا تعني لنا.

أتريد أن تقول إن الموت حق ، نعرف هذا..

أتريد أن تقول إن الموت غريب وافد، نعرف هذا..

أتريد أن تقول آخر العناء عناء.. نعرف هذا.

يا أيها التابوت الغريب الوافد ماذا تريد أن تقول؟

ثم صمت كل شيء.. لا تراتيل، ولا كهنة، ولا صيحات فجيعة على الموت ولا بقايا حب من أحفاد الأحفاد، أو من قرءوا بقايا الكلمات فوق لفائف البردى..

البرد - البرد -

صقيع، صقيع - وأيدٍ غريبة تتداول التابوت، وأنا أتحرك من يد إلى يد، ومن مكان إلى مكان، وحولى الصمت..

قال قائلٌ فى المدينة:

- هذا تابوت ميت من آلاف السنين لعله يحمل لعنة الأقدمين.

والكل افترق وابتعد وارتعد.. وساد الصمت من جديد

ثم قال قائل فى المدينة:

- العراقة والأصالة والقدم..

ومن حولى العشرات والمئات، واهتز كل شيء فىّ ومات..

وقال ثالث فى المدينة:

- يا سلام كل شيء يحول، وهذا مجرد عدم.. واندثر الحب فىّ، سكن ومات..

وجاء صبى معروف يحب الكلمات ويعيش حياته من أجل الكلمات، فقرأ ما حول التابوت وقال:

ـ ياقوم ، هذا فكر وحرية.

وارتفع الصخب والضجيج.

وصاح مرة أخرى:

ـ هذا كلام فيه عطاء ورؤية..

وموسيقى فى الكاسيت ورقص الكابريهات، ودفء المطاعم، والبنات يلبسن الجينز وعلى شفاههن بسمات، وحول حركات خصورهن دعوات..

وقال:

ـ يا ناس، هو يقول كلمة، كتبها حول نفسه قبل أن يموت.

وصاح اللحن، وهتف مذيع بحياة رئيس الجمهورية، والموسيقى اشتعلت داخل مرقص والمدعوون فى حفل التف كل رجل حول فتاة، وتفتحت الفتيات لدعوات الحب والحياة من جديد.

وقالت واحدة:

ـ ما هذه المومياء؟

قال ولد:

ـ واحد مات

قالت امرأة:

- صاحب البيت يحب العراقة فالمومياوات عنده جزء من ديكور البيت.

قال الرجل العجوز:

- دفع فى هذه المومياوات آلاف..

قالت الفتاة:

- الموسيقى خافتة..

وقال الولد:

- شفاهك صارخة يا حلوة وأنا أعرف معنى ما فيها من نداء..

والصخب والصراخ، وأزيز طائرات، ومن بعيد عويل آلات مجهولة، وارتجفت من البرد، والكل ينظر والكل يدور، وحولى آلاف العيون فى المتحف الغريب، فى بلد غريب.. وزجاج يحتوينى وأنا أستكن فى صمت، لا الكلمات وصلت إلى أحد، ولا حتى يعنى العذاب..

من يد إلى يد، ومن مكان إلى مكان، وهذا يدفع وهذا يأخذ، وأنا هنا مرة، وهنا مرة.. والأضواء تسطع وأنا مسلوب ضائع مسروق فى تابوت آخر من زجاج سرقنى الزمن، وأن أحدا لا يعرف من أنا.؟!

يا ناس، كنت كلمة فكيف أسقط فى حفرة الصمت والضوء، كيف أصبح عرضاً فى متحف أنيق يا ناس..

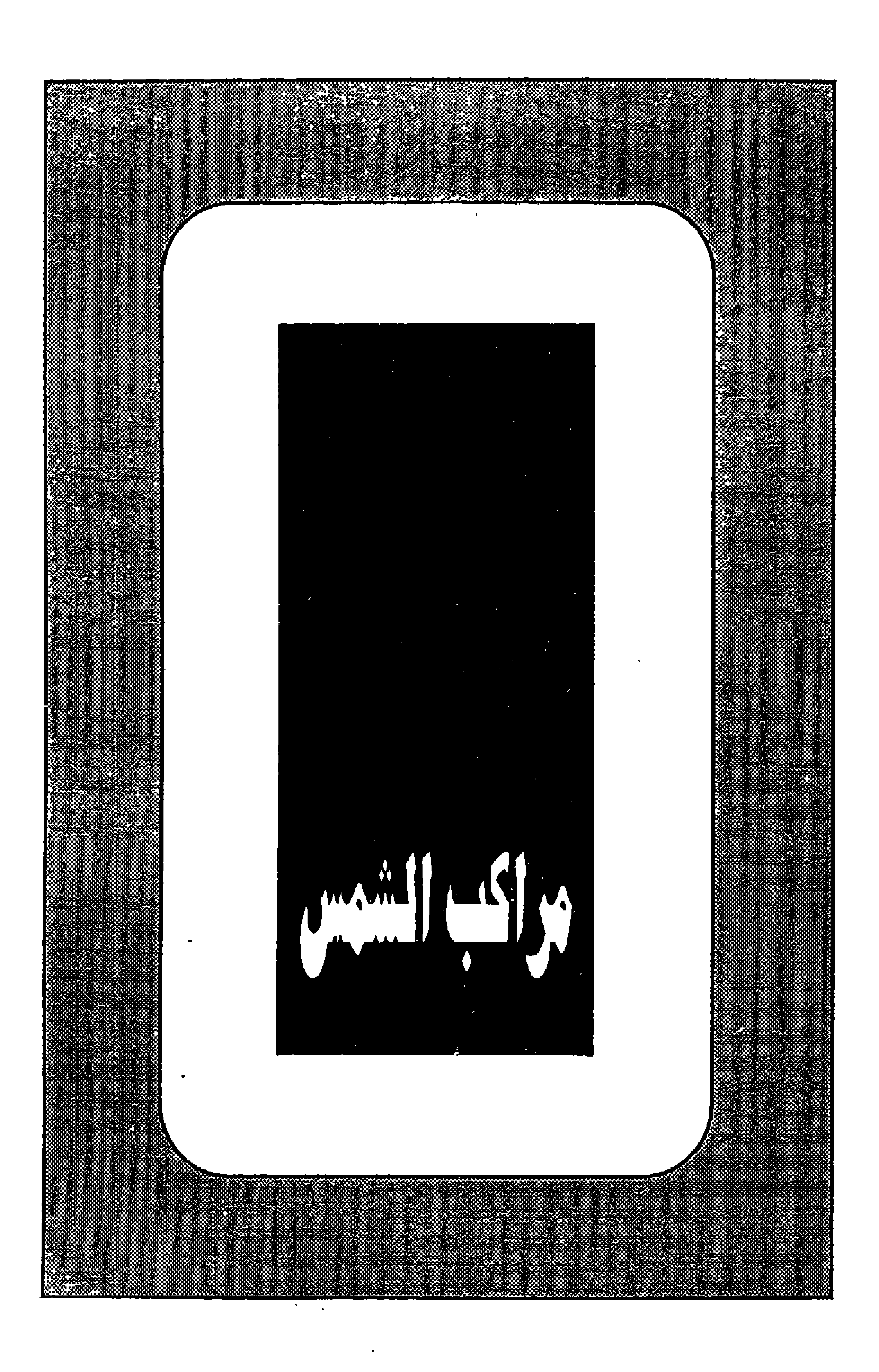
أين صمت القبر وضجيج العظام الجديدة، وهمسات الموتى، يقبلون على القبر بكل الخوف والحب والحذر القديم..

كل شيء مات.. حتى الموت مات..

فأنا مجرد تابوت، حولي زجاج في متحف غريب.. حين التهمتني النيران أحرقت الصوت، وحولت الكلمات إلى رماد.. في داخلي كومة رماد حط عليها القار فالتصقت في أعماقي ولم يعد لها وجود.. ثم أحاطت لفائف الكتان بالجسد المشوه فاختفى كل شيء، ولم أعد إلا مجرد مومياة تستقر في هذا المتحف البعيد. ولا أحد يدرى إلى متى ستظل نهبا هنا لكل العيون ولا متى تمد يد اللصوص من جديد، لتحمل التابوت والمومياة إلى من يريد.. واحد يشترى، وواحد يبيع.. وكأني سقطت بين الكواكب حيث لا جاذبية فأنا ساكن في فراغ كأنه العدم.. بعيداً، بعيداً في نهاية كل وجود، ولكني أحس لهب النار التي أكلت جسدي يوماً، وتظل دائماً في داخلي ولكني لا أجد وقع القار المخيف.. والصمت حولي مظلم. وتهتف كل أحزاني متى نعود إلى المقبرة .. متى نعود ونحن أغراب يا معنى الوجود في وجودي.. نسينا الوطن فاللص واحد من أبناء هذا الوطن، باع الجثة والمومياة التابوت إلى هذا الوجود الشمعي...

ونحن ،أنا والوجود والبقايا، الصمت نهتف. متى نعود.. متى.. نعم متى نعود :

ولا أحد يسمع صوتنا .. فقد أكلت النار الصوت والكلمات حين احترقت..


مراكب الشمس



ألف جلاد يحملون الفئوس، وعلى وجوههم الأقنعة السوداء، تغطى الرأس والصدر تلك الأقنعة، ولكنها تكشف عن السواعد المفتولة والعضلات البارزة.. والطبلة الرتيبة تدق فى إيقاع لا يتغير، وأنا وسط الجمع أسير، لست واحداً من هذا الجمع، ولكنى بؤرة هذا الجمع وملتقى عيونه واهتمامه.. فأنا فى الوسط، أمامى حامل الطبل وورائى حاملو الفئوس، ويداى معقود رسغاها وراء ظهرى، وعيناى لا تريان إلا بؤرة مبهمة تظهر أمامى وتختفى، تبين وتغيم، تتحرك وتثبت، ومع إيقاع الطبلة أسير فى ثبات إلى أمام دائماً إلى أمام.

أهم أربعة حقا من حاملى الفئوس؟ أم هم عشرات، بل مئات، بل ألف جلاد يحملون الفئوس وعلى وجوههم الأقنعة السوداء.. تغطى الرأس والصدر تلك الأقنعة، ولكنها تكشف عن السواعد المفتولة والعضلات البارزة.

لم أكن أبداً على رأس كتيبة محاربة، ولم أحمل سلاحاً فى يدى أوجه منه الموت أو به أو فيه أو عليه إلى أحد.. ما حملت إلا القلم، وما

أخرجت منه أو به أو فيه أو عليه إلا الكلمات، وما حملت كلماتى أبداً إلا معانى الحب والمساواة والإخاء والسلام.. وهى لا تقتل، أم هى تقتل؟ بل لعلها تقتل.. فها أنا أسير امامى طبلة تدق فى وقع رتيب ممل، وخلفى حاملو الفئوس، وعلى الجانبين حشد يهتف فى صراخ مسعور أن الموت لى.. الموت لى.. وان حاملى الفئوس أبطال يستشهدون فى ساحة معركة رهيبة حين يحزون بفئوسهم عنقى الضعيف المريض، وحين يدفعون بجسدى المهزول الممروض الى حيث النطع، وحين تطبق أيديهم الطليقة علىّ ليثبتوا جسدى فلا يتحرك، وحين ترتفع فئوسهم البطلة لتجتز عنقى المستسلم.. ويداى مقيدتان خلف ظهرى رسغ إلى رسغ، ألم إلى ألم، وأننى وسط هذا الجمع الحاشد وحيد. والوقع الرتيب، يسرع فى رتابة فنحن نقترب، نحن نقترب، نحن نقترب.

مجموعة من حاملى أبسطة الرحمة تتقدم الموكب الجنائزى، وستائر مخملية عريضة يمسكها أربعة من الشمامسة وعليها صليب مذهب يملأ الوسط، يسيرون فى صمت ورتابة، بساط وراء بساط يمر .. ومجموعة من الصبيان يلبسون البياض حتى أطراف أصابعهم، ويحيطون أجسادهم بشرائط سوداء تعقد تحت الإبط الأيسر بمسافة طويلة ـ والوقع رتيب، وأجراس الكنائس تدق، وتدق، دقات الجناز الحزين.. ثم أجراس صغيرة وصنج تعلن صوتها النحاسى وسط التراتيل.. ووراء أبسطة الرحمة يسير المطران بتاجه المقدس المزخرف وبين يديه الإنجيل ووراءه مجموعة المنشدين، يهمسون التراتيل فى

صمت حزين، وأمامه شماس شاب بدين حول جسده شريط يحمل الصليب، وهو نفسه بين يديه صليب معدنى كبير يحمله أمام عينيه، أمام جسده، أمام خطوه الرتيب.. ثم تأتى العربة.. ستة بغال تعلوها الأردية الداكنة يتوسطها الصليب الأسود، تمر كل إثنتين معاً، والجو يملؤه الصهيل، وأصوات جلود الألجمة وهى تحتك بعضها ببعض، وتحتك بالوصلات الحديدية الصلبة التى تربط كل جوزين معاً، وكل بغل إلى لجام، والجميع يربطون إلى لسان العربة الممتد الذى يشد كل البغال إلى جانبه، مقيدة مطيعه، خائفة، متألمة، من القطع الحديدية الصلبة التى تلصق كل فك بالخيط الحديدى المستمر من أول جوز منها إلى آخر بغلين.. والعربة تسير وتهتز، وفوق المقعد رجل مصمت ينظر فى صمت إلى الناس، وينظر فى صمت إلى الحياة، وينظر فى صمت إلى الموت. هو فوق مقعده مصمت لا يتحرك ولا يتألم، ولا يتكلم، فقط يجلس هناك عند أعلى مقعد العربة، وحوله ملاك عن يمين يمد أجنحته الخشبية الصماء الخارجة من وجه مصمت ساكن، عليه ابتسامة مرسومة لا تتغير، وحوله ملاك من شمال يمد أيضاً أجنحته الخشبية الصماء الخارجة من وجه مصمت ساكن عليه ابتسامة لا تتغير.. والموكب يسير فى رتابة، والصنوج تدق، وحوافز البغال تضرب الأرض وأصوات التراتيل ترتفع، والجنازة تسير..

مجموعة من المنشدين تتصدر السائرين، وهى ترتل فى رتابة واستمرار:

ـ لا إله إلا الله، محمد رسول الله،

ثم يرتفع صوت عال عميق من وسط المجموعة يصيح:

ـ حى قيوم.. هو الواحد الأحد..

وتستمر المجموعة فى سيرها، وفى ترتيلها الدائم..

ـ الله، الله.. لا إله إلا الله.. الله الله.. محمد رسول الله..

ثم يقول الصوت المنفرد

ـ هو الله.

وتقول المجموعة من وراءه

ـ يا دايم، دايم، ولا دايم غير الله..

ومجموعة من حاملى المباخر، يلفون حول الوسط فوطة مزركشة زرقاء اللون، وفى يد كل منهم المبخرة يدور بها ويدور، وهو يردد مع الجمع:

ـ الدايم هو الله، ولا دايم إلا الله، يا دايم، يا دايم، ولا دايم إلا الدايم..

وحدوه.. الله.. لا إله إلا هو، القيوم..

ـ وحدوه..

ـ هو الله..

ثم تأتي الموسيقى، بوقعها الرتيب الجنائزى المخيف المصمت. دقات وراء دقات، والأولاد من الملجأ يسيرون فى وقع منتظم، يرتدون الأردية الصفراء، ويحملون الأبواق التى تلتف سيورها حول صدورهم وأعناقهم، ينفخون فيها على الوقع المنتظم، بينما يسير وراءهم حاملو الصنج يضربونها لتساير نفس الإيقاع، ثم يأتى حامل الطبلة يدق طبلته فى وقع رتيب يحكم به سير الجنازة، ونفخ الأبواق، وصياح المرتلين، وصرخات الموحدين، وأن الله دايم، وأن الله حى، وأن الله قيوم.. وتسير الجنازة..

وصاح واحد على الطريق:

– زهر وخوص للميتين..

وكان يقف إلى جوار كوم من الخوص والورود الذابلة المثقلة بالماء، وبعض الرياحين، وبعض زهر افرنجى متفتح..

وصاح آخر:

– الريحان والتمر حنة للميتين..

وكان يقف وأمامه كوم من الريحان، وبعض التمر حنة التى لم يعد أحد يجدها إلا عند مشارف القبور..

والجنازة تسير، وواحد يتقدم ليحمل عبء العامود الخشبى الأمامى بينما يسرع آخران يحتلان مكان آخرين يحملان عبء جانبى الخشبة الخلفى عن يمين ويسار، فالثواب معروف وقائم والكل يسعى

إلى الثواب يحمل خشبة الميت المندفعة باستمرار فى وقع رتيب إلى النهاية، إلى القبر، إلى حيث المستقر الأخير.. وصاح واحد:

ـ وحدوه.

ومن خلفه صاح الجميع:

ـ لا إله إلا الله محمد رسول الله..

والموسيقى تدق، وحملة المباخر يمرون، وأصوات باعة الخوص والزهر والورد والريحان والتمر حنة تتعالى حول الجنازة السائرة، وأنا مسجى فى النعش، وحدى ولا أحد معى، يهتز جسدى مع حركة السير الرتيب.. وأسمع كل شىء، وأحس بكل شىء، والتابوت الخشبى يهتز، فى عهد الرومان كان صندوقاً خشبياً مصمتاً تثبت على حوافه المسامير، وكأنما يخشون أن الميت يعود، ثم نسى الناس هذه القباء التى تحمل توابيت منتصبة، واحدة إلى جانب الأخرى، وبعضها يحمل الجماجم فوق التوابيت والخفافيش ترفرف، وتدور بالمكان، بالمقبرة، وأحلام مريضة مذعورة حول عودة الميتين إلى الحياة، لينتقموا من الأحياء الذين يلوثون المكان والذكرى، بوقع الأقدام وتردد الأنفاس، وأنهم يعيشون، وأن وجودهم حقيقى معلن..

فى الليالى القمرية تنتشر الظلال، وخاصة حول المقابر، وتعوى الذئاب وخاصة قرب المقابر.. وتخرج الخفافيش وترفرف بأجنحتها السوداء الغريبة، فهى مرة كبيرة مخيفة، وهى مرة نحيلة مخيفة، ولكنها ترسل الذعر فى القلوب، وخاصة قرب المقابر، وبومة هى رمز

الموت، رمز الأماكن المهجورة، رمز النهاية المنتظرة لأى حى، يقع فى المهجور الذى تتوسطه بومة ـــ العينان تلمعان وسط الظلام، ويصدر عنها صوت مبهم.. فإذا بالخوف يحل بالأجساد، لم يعرف عنها أنها هاجمت إنساناً، وإنما هى تهاجم الفئران والثعابين.. ومع هذا فلا يخافها إلا الإنسان..وحين يجدها وسط الأماكن المهجورة يعرف أن الموت حل.. وأنه مضيع، ولم يبق على وجوده الإنسانى فى حياة اليوم إلا لحظات، فالبومة رمز الشؤم الذى يحل، ورمز الموت القادم لا محالة..

ولكن البق والقمل تتحرك فوق الحيطان، متجهة كلها نحو الجسد المسجى ـ هى تعلن أن الجسد أصبح فريسة مباحة، حتى للهوام العاجزة الحقيرة، تتحرك وتتجمع، مجموعات اثر مجموعات، تملأ الحائط وتأتى من الشقوق، وتأتى من أرض الغرفة، كلها فى إصرار وفى بطء، تتجه نحو جسدى المسجى فوق الملاءة الباهتة التى كانت بيضاء يوما، ثم نسوا أن يغيروهافغدت فى لون التراب، أو فى لون النهاية، وأنا لا أعترض، وكيف أعترض، وكل شىء فى واهن مسكين، مريض متهافت..

وكنت أدرك وأنا فى رعب وخوف، أننى سأصبح أسير هذه الهوام الزاحفة من كل مكان ما الذى أخرجها من مكانها، ما الذى أفهمها أن نهايتى قد اقتربت، ثم من الذى يستطيع أن يمنعها ـ وإن منعها هنا فى الحجرة التى يضيئها مصباح السقف، ويجلس فيها وحولها ناس لهم صوت وحركة، ويحاولون أن يكونوا حولى وأن يكونوا معى، فما الذى،

ومن الذى يمنعها بعد حين، وأنا وحدى فى المكان الرطب السخيف، ليس فيه إلا عصارات ميتين سابقين، وبقايا عظام مهترئة من أعوام وأعوام.. ولن تجدى تراتيل المعممين فوق القبر، ولا رش الماء وسط تهليل حفارى القبور وصيحاتهم، فأنا آخر الأمر مسجى فى هذا الحيز المظلم الضيق - أحس أن العظام التى سجيت حولى لها حياة.. ولها وجود، ولها أسئلة عديدة فضولية، مندفعة مستمرة دائمة، تريد أن تسأل حول كل شىء لم يعد له وجود، وتريد أن تعرف أين استقرت الأشياء.. ولم يعد هناك شىء مستقر فى مكانه، أبدا كل شىء يحول ويتغير، كل شئ يحول ويتغير..

وجمع عند حافة المقبرة يرتلون ويصرخون، آيات قرآن ومواعظ وصرخات لا معنى لها.. والنسوة يتحلقن ويصرخن، والأطفال والعجائز يبكون فى حرقة وصدق، وأنا أنزل المقر الأسود المعتم الرطب الأخير، وتشتد الصرخات، ويزيد إيقاع الأصوات، والأتربة تنهال فوق رأسى تماما، يحول بينى وبينها بعض صخر وضعه المحترفون عن عمد، ثم ينهال غبار التراب، وصرخات النساء وتراتيل المحترفين - وترش قربة ماء ويصيحون هناك عند حافة الكهف، التربة، المقبرة، النهاية لا اله إلا الله. والعويل الكاذب، وهمسات رجال يريدون أن ينصرفوا بعد الجناز الى حال سبيلهم، وتراتيل العجزة عند باب المقبرة بأجزاء من القرآن، مصمتين بلا معنى، ينتظرون النقود والمنح، وان اليوم عيد، فقدمت فى هذا اليوم، فهو عيد لكل البوم والغربان والخفافيش، والعقبان والديدان والبق، والصراصير والبراغيث، والقمل والحيات..

وفي عـينيـهـا نظرة عـتـاب، المنديل الملىء (بالقـوية) شـديد الالتصاق بجلد الرأس، ولكن تبرز منه خصلات شعر نافرة معطرة، ومن خلفه تتدلى ضـفيرتان غليظتـان تصلان إلى قرب الوسط، وفي العينين نظرة عتاب ولوم.. ولم أكن اقوى على مواجهة هذه النظرة ولا ما فيـهـا من لوم، كنا صـغيرين، وكنا نجرى بين القبور، رغم كل ما تحمل من أحزان وأسى، فى فرحـة العمر الغرير، ودفـء الدماء الجديدة التى تجـدد للبـشـرية كلهـا وجـودهـا.. كنا نضـحك ونجـرى، نتـقـاذف بالزهور والرياحين، نتـبادل فـاكـهـة المقابر، الخيـار والتفـاح الأخضـر والبرتقال والجوافة والبلح، نأكل ما نأكل، ونحمل ما نحمل فى ملابسنا التـى نطويـهـا لتـمـتلئ بكل هذا الحـمل الغـريب، وتنكشف رجـلاها، وأضحك من بياضها وهزالهـا، ونجرى.. وتمر بنا الجنازات القادمة الى المقابر، فنقف مطأطئ الرءوس نرفع اليد اليمنى الى أعلى وقد خرجت السبابة وحدها نشهد ألا إله إلا الله ، واليد اليسرى ترفع طرف الثوب الملىء بالفاكهة والفطير والشريك وعطايا العيد فى المقابر فإذا ما مرت الجنازة رفعنا رءوسنا لتلتقى عيوننا فى ضحكة مرحة عابثة، وأسألها؟

ـ قرأت الفاتحة؟

فتقول:

ـ ـ نعم وأنت؟

وأهز رأسى، ثم نجرى من جديد

ونضحك ونجرى، وأشم رائحة عرقها، وأضحك وأضمها إلىّ فى عفوية وأضـحك، والجنازات تتوالى على المقابر، ونحن فى يوم الموسم

نتجمع عند (الحيشان) فى المقابر.. أهلنا يأتون بالمقرئين يقرءون القرآن على أرواح الميتين، ويتبادلون الزيارات حاملين الخوص والريحان والزهور يضعونها فوق منازل القبور فى الحيشان، وفوق شواهد القبور المنتشرة فى كل مكان فى المقبرة الجماعية التى تحتشد فيها جثث وجثث، وتاريخ وتاريخ.. ونحن فقط نجرى ونلاحظ المقرئ يجلس الى ظل شاهد، مقعيا يجلس ويقرأ القرآن، وهو يقفز بين السور.. وامرأة متشحة بالسواد تبكى فى صمت إلى جوار شاهد حجرى، ولا تعرف، ماذا يقرأ الرجل، هى فقط تبكى حبا ضاع ، وأملا انتهى ، وصفحة انطوت.. وتنظر إلىّ، وأنظر إليها وتختفى نظرات الحزن من عينيها وتضحك من جديد، ثم نجرى إلى حيث الزحام، ورجل يحمل عصا طويلة مغطاة بقماش حائل اللون يهزها، فيهتز جرس فى أعلاها مصدرا صوتا موسيقيا ظريفا ويقول:

- حلاوة زمان يا ولد، عصفور حصان للولد..

ونتسابق بالملاليم التى نخفيها فى ثيابنا، أنا يصنع لى حصانا، وهى يصنع لها عروسة، ونملأ أفواهنا بالحلوى الذائبة من فعل الشمس والرطوبة ونضحك ونجرى من جديد.. أبدا لم يكن من حقها ان تنظر إلى بعينين حزينتين، فأين هى الآن؟ هل سبقتنى فى هذا الطريق، أم أنا أسبقها..؟ سنوات طويلة ثقيلة سخيفة مليئة بكل شىء ولا شىء.. من أين تطل بهذه النظرة الحزينة، من عالم مضى، فهى تنتظرنى عند المقبرة. أم من عالم ينتظر، عالم مايزال موجودا بكل تعاسته وسخافاته

وثقل السن والأمـراض فـيـه، وكـيـف هى الآن مع السن والأمـراض ومشاكل الزوج والأولاد..؟

هذه النظرة الحزينة لا ذنب لى فيها، فقد انقضى عهد الطفولة والصـبـا، وخـرجت هى منهـا حين بلغت مـرحلة البلوغ، ولم أكن هنا لأشهدها فقد كنت فى الصعيد مع أبى، أتابع مرحلة الدرس والقراءة، وانتظار أعداد مجلات الرسالة والرواية الثقافية مع كل قطار جديد الى محطتنا النائية المنفردة البعيدة.. وحين عدت بعد التطواف كانت قد رحلت من بيتنا هى وأسرتها وأختها التى تزوجت موظف البريد المهم الذى يسكن قبالتنا، أما هى فلا صوت ولا حس ولا خبر عنها. ثم مضت الحياة تجرى، وتجرى، وانهيت الدراسة الثانوية وتخرجت، وتسلقت درجات ما، وهبطت درجات ما وهى لا تدرى.. فربما تزوجها حرفى ماهر، أو تاجر ملىء، فهى تستاهل هذا المال الوفير الذى يمكن أن يجـعلهـا سـيـدة فى دارها ويجـعل من اولادها اطبـاء ومـهندسين وسماسرة.. هىء هىء.. ماذا يعنى هذا كله لى، وأنا انسان يحملنى الناس فوق اكتافهم، ،جسدى يهتز فى التابوت الخشبى مغطى بشال ملون، وعند حافة الشاهد الخشبى طربوش، يقول إن من فى الصندوق رجل.. يا عينى.. رجل يساق إلى المقبرة..

ولكن حقا ينسى القلب، ينسى هذه النبضات البكر، فى هذا العمر البكر، هل حقا ينسى القلب انه شارك نبضات القلب الصاحى، يهزالنهد الجديد النافر يوقظ العطاء البكر الصاحى الكريم النظيف النقى..

وكم فى طريقك من حكايات لا تعرف البكارة أو الصحو أو الكرم او النظافة او النقاء..ويصيح الرجل عند حافة الطريق:

- وحدوه.

وتقف السيارات والحمير والعربات والرجال الذين يحملون أحمالا من الزيتون والليمون من الأسواق القريبة، وأمر أنا وموكبى من مفرق الطرق، ونسير وأكثر من يد تمتد مرفوعة فى الهواء تقرأ الفاتحة وتترحم على السائر الحزين نحو مقبرة فاغرة الفاه تنتظر الجسد، الذى أنهى الرحلة ولم يبق له إلا جلسة الاستسلام الأخيرة للقضاء، والنهاية.

صورتك تغيم وتبتعد، تغيم وتبتعد، وما كان لك الحق فى الحزن والتعاسة ، فقد تاهت طرقاتنا وسط الحياة، وألف جلاد يحملون الفئوس، وعلى وجوههم الأقنعة السوداء، تغطى الرأس والصدر تلك الأقنعة، وأنا مساق الى النطع والجلاد.. وأين رثاؤك يا حلوة من هذا المصير الحزين.. فبعد نهاية الطريق، يوضع النطع على السكة، وتعصب العين - ثم يرتفع فأس الجلاد ويهوى ليقطع الجسد عن الرأس، ويسيل الدم ويسقط الرأس فى السلة.. والكل يسير فى صمت، أو فى صراخ.. النهاية يا حلوة واحدة.. سواء سقط الرأس على النطع، أم سقط الأنف عند الأربعين داخل المقبرة، أو سقط السقف فوق المتجمهرين فدمرهم، ام سقطت قنبلة ذرية مبيدة فهو الموت.. هو الموت.. هو الموت. وصاح الولد الامرد يحمله أقرانه فوق الأكتاف:

- يحيا الموت فى سبيل الوطن..

وصاح الكل وراءه:

- يحيا الموت فى سبيل الوطن، يحيا الوطن، يحيا الوطن..

وصحت وأذرع ترفعنى وأكتاف تحملنى، وعيون تنظر إلى بأمل وترقب- صحت أقول:

- تحيا الثورة.. تسقط معاهدة صدقى بيفن..

وورائى الأولاد:

- تحيا الثورة.. تسقط معاهدة صدقى وبيفن..

ثم انثال علينا رشاش رهيب من فوهات أنابيب الحريق لكل وحدات المطافئ فى المدينة وجرفتنا المياه، أنا سقطت وسط أقدام من كانوا يحملوننى، والكل جرى.. والهتاف ضاع.. وانطلقت رصاصات فى الهواء.. وبعض أحذية تبقت من أقدام من جرى، واسكت يا ولد ولا تتكلم حتى يأتى ولى أمرك.. ووسط عملاقين طويلين يندفع جسدى إلى أمام نحو العربة السوداء المظلمة الواقفة عند حافة الطريق.. ويقول ضابط رقيق:

- كيف تقول تسقط معاهدة صدقى بيفن يا كلب؟

ثم ينهال كفه الخشن فوق وجهى للمرة الألف ولا أدرى أين أنا ولا كيف جاءوا بى إلى هذا المكان الرطب الكريه الرائحة، ولا سر عداء هذا الولد الضابط لى، ولا سر حماسته لمعاهدة صدقى بيفن، ولا كيف تنهال الأكف فوق وجهى ورأسى وعقلى ووجودى كله.. ثم تقذف بى

أذرع، وأذرع، إلى ناحية من مكان مظلم قذر.. ويغلق الباب، معدن يصطدم بمعدن.. وابكى وحيدا والضابط يضحك من بعيد..

أربعة من حاملى الفئوس، ويداى معقود رسغاها وراء ظهرى، وعيناى لا تريان إلا بؤرتيهما.

تظهر أمامى وتختفى، تبين وتغيم، تتحرك وتثبت، ومع إيقاع الطبلة أسير فى ثبات إلى أمام دائما إلى امام.

ويقول أبى وفى نبرته خضوع واستكانة:

- يا سيدى الضابط أنا أضمنه.. هو ابنى وسأعرف كيف أؤدبه.

وسوط الجلاد يمزق جلدى، ويدى فى يد أبى وسط الشوارع المترية، والأقنعة السميكة تغطى وجه الجلادين، وهم يسيرون حولى، والطبلة يدق وقعها الرتيب، وهو يشدنى شدا من شارع إلى شارع، حتى البيت - وتقول أمى:

- حمدا لله على سلامته.

ويقول الرجل الملتحى عند أول النعش:

- وحدوه.

ويحل صمت على القوم، ثم يصيح صوت أجش:

- لا إله إلا الله - حى قيوم

ويندمج الجميع فى صوت جماعى:

- الله، الله، لا واحد إلا الله وهو الله، لا إله إلا الله.. حي هو الله، قيوم هو الله - لا إله إلا الله.. محمد رسول الله..

ويسير الجمع، والطربوش المائل فوق الخشبة يهتز، وأنا داخل الخشبة أهتز، والجمع يسير في صمت مرير، تقطعه صيحات التوحيد والصلوات.. وتسير.

وأقف في مدرج الجامعة، أنظر إلى عشرات العيون بل المئات، وأصر على قولي:

- الانتماء إلى الوطن هو الأصل، وكل علم لا يؤدى الى توطيد هذا الانتماء علم كاذب..

ولا أحد في كل المدرج يهتز أو يهتم، بل هم يكتبون، البلهاء يكتبون ما أقول، وماذا أقول في مقررهم الساذج المريض - وأعود أصرخ وأنا أضرب مائدة المحاضر بكل قبضة يدى:

- فنحن حين ننتمي نكون أمة، والا فنحن مجرد قطيع يعبر السهول، سهولا مليئة بالعشب ترعى فيها القطعان حتى تسمن ثم يأتي الصائد، بل الصيادون، يغترفون من اللحم المباح، والبلد المباح، والعظام المباحة..

مفهوم..

سيدى لا أحد يفهم، لا أحد..

يستدعيني العميد، ويرفع نظارة، ويضع نظارة وتمر يده فوق المكتب المنسق النظيف ثم يقول فى صوت هادئ قريب من الهمس:

- لا أستطيع أن أمنعك، ولكن ما تفعله جنون، وما تقوله لا صدى له.. هل هذا يكفى؟ وأقول..

- هذه دروس جامعية يا سيادة العميد.. وإن..

ويقاطعنى فى حسمه قائلا:

- أنا وأنت نعرف هذا، ولكن الأمن لا يعرف هذا..

قلت فى استسلام كئيب:

- وهل لابد أن يعرف الأمن أننا نعلم اولادنا ما تعلمناه..؟

قال، وهو يعيد نظارته الأولى إلى مكانها، وينزع نظارته الثانية من مكانها:

- الأمن يرى....

وهنا انتهى كل ما لدى من احترام له، ومن استسلام لمنصبه كعميد، ومن كبت قديم عريق مخيف، فقلت له:

- لا الأمن يرى، ولا أنت ترى، تعرف أنى أستاذ زائر، لا يقيدنى شيء، لا الوظيفة، ولا قرارات من مجلس ما، من لجان ما من تعاسات ما.. السلام عليكم..

وحاول في وقوفه أن يمنعنى، حاول أن يقول لى إن هذا عيب وان هذا خطأ، حاول وحاول ولكنى خرجت. وحين وصلت إلى باب الكلية، وأحاطنى جو الحرم الجامعى حيث تلتقى كل الكليات فى القاهرة، حول الفراغ القائم بين الآداب والحقوق ومسرح الجامعة، والساعة التقليدية، اهتز سمعى بنداءات قديمة فى هذا المكان:

ـ يحيا اتحاد الطلبة..

وآخرون يقولون:

ـ يسقط الاستعمار، وتسقط معاهدة صدقى بيفن..

وآخرون أيضاً يقولون:

ـ الله أكبر ولله الحمد ـ لا استعمار ولا ملكية..

ودخت، ودار كل شيء حولى، فلا التاريخ هو التاريخ، ولا الكلمات هى الكلمات،ولا الناس هم الناس ـ ورفعونى فوق أكتافهم، ومال الطربوش إلى حاجبى ورفعت حنجرتى وأنا أصرخ:

ـ لا استعمار بعد اليوم..

ويرددون ورائى:

ـ لا استعمار بعد اليوم..

وأصرخ من أعمق أعماقى من جديد:

ـ يسقط الطغيان، يسقط الطاغية.. يسقط الملك ـ ويرددون ورائى

ـ يسقط الملك، يسقط الملك..

وألمح من بعيد رجالاً يهرولون، ويدقون الأرض بأحذيتهم الغليظة، وترتفع عصيهم وتهوى، وترتفع عصيهم وتهوى ـ ويصرخ واحد:

ـ فتحوا الكوبرى ـ نحن محاصرون.

ويصرخ آخر:

ـ العساكر أمامنا والعساكر وراءنا.

ويعم الهرج والمرج، وأصبح فوق الأرض، قذفنى من كانوا يحملوننى فوق الأكتاف، وضاع الطربوش، والصرخات تتعالى من كل مكان، أنين مجروح معذب وعواء غريب من ناس لا نعرفهم ولم نعرفهم من قبل، يلبسون الخوذات، ويرفعون التروس، ويضربون بالعصا، ويصرخون فى حنق عنيف.. كل رأس شجته عصا، لا يعرف أحد من رفع العصا، ولا لماذا شج الرأس.. كل ضلع انكسر تحت ضربات الأيدى الغليظة، لا يعرف أحد لماذا انكسر، ولا من كسره.. صرخات وضربات، وقفز بعضنا إلى النيل، يهرب من هذه الهجمة البربرية العاتية من المتحصنين خلف التروس والخوذات والعصى.. وضابط سمين مترهل، مليء بالنجوم والشوارب والغباء يجرى خلفهم، يصرخ فى عصبية وانتصار وتشف.. ولا أحد يعرف لماذا يصرخ ولا على من يصرخ، الوزير أمر، ثم المحافظ أمر، ثم الحكمدار أمر، ثم مدير الأمن أمر، ثم مدير المنطقة أمر، ثم المأمور أمر، ثم الضابط أمر، ثم الصول أمر، ثم الغفير أمر.. ولا حول ولا قوة إلا بالله.. قصة مكررة

ممطوطة معادة، لا يتعلم فيها نفر، وتدوس النعال أمل مصر وحب مصر، وهى غبية بلهاء وبعد حين تعيش على شعارات يرفعها أبناء مصر ومن أحبوا مصر..

ورفعنى جمع من المصابين، أحدهم زراعه مكسورة، والآخر يصرخ، والثالث شج رأسه صنديد من مغاوير الجهل والعماية، وأخذت أصرخ:

ـ تحيا مصر..

صوت مشروخ.. صوت ضعيف واهن فكتفى ينزف من جرح عميق أحدثه سنكى ركب فوق بندقية، لم تطلق أبداً إلى أمام، وإنما كانت وستظل دائماً تطلق إلى خلف، وصاح من تبقى فوق الكوبرى فى أصوات واهنة مصرة مليئة:

ـ تحيا مصر..

وغامت الأشياء، الجند يجرون هنا وهناك، وضابط يصرخ، وأنا وسط الجمع.. ألف جلاد يحملون الفئوس، وعلى وجوههم الأقنعة السوداء، تغطى الرأس والصدر تلك الأقنعة، والطبلة الرتيبة تدق فى إيقاع لا يتغير ـ أهم أربعة حقاً من حاملى الفئوس؟ أم هم عشرات، بل مئات، بل ألف جلاد يحملون الفئوس..؟ على وجوههم الأقنعة السوداء تغطى الرأس والصدر تلك الأقنعة.. مجموعة من حاملى أبسطة الرحمة تتقدم الموكب الجنائزى، وستائر مخملية عريضة يمسكها أربعة من

الشمامسة وعليها صليب مذهب يملأ الوسط، يسيرون فى صمت ورتابة.. والجنازة تسير، الموكب يسير، المظاهرة تسير، مجموعة من المنشدين تتصدر السائرين وهى ترتل فى رتابة واستمرار:

ـ لا إله إلا الله محمد رسول الله.

ثم يرتفع صوت عال عميق وسط المجموعة يصيح:

ـ حى قيوم.. هو الواحد الأحد..

والجنازة تسير وواحد يتقدم ليحمل عبء العامود الخشبى الأمامى، بينما يسرع آخران يحتلان مكان آخرين يحملان عبء جانبى الخشبة الخلفى عن يمين وعن يسار، والثواب معروف وقائم، والكل يسعى إلى الثواب، بحمل خشبة الميت المندفعة باستمرار فى وقع رتيب إلى النهاية إلى القبر، إلى حيث المستقر الأخير..

وقاطعنى عميد الكلية قائلاً:

ـ أنا وأنت نعرف هذا، ولكن الأمن لا يعرف هذا..

وأصرخ من أعمق أعماقى من جديد..

ـ يسقط الطغيان، يسقط الطاغية ـ يسقط الملك..

ويرددون ورائى:

يسقط الملك.. يسقط الملك.

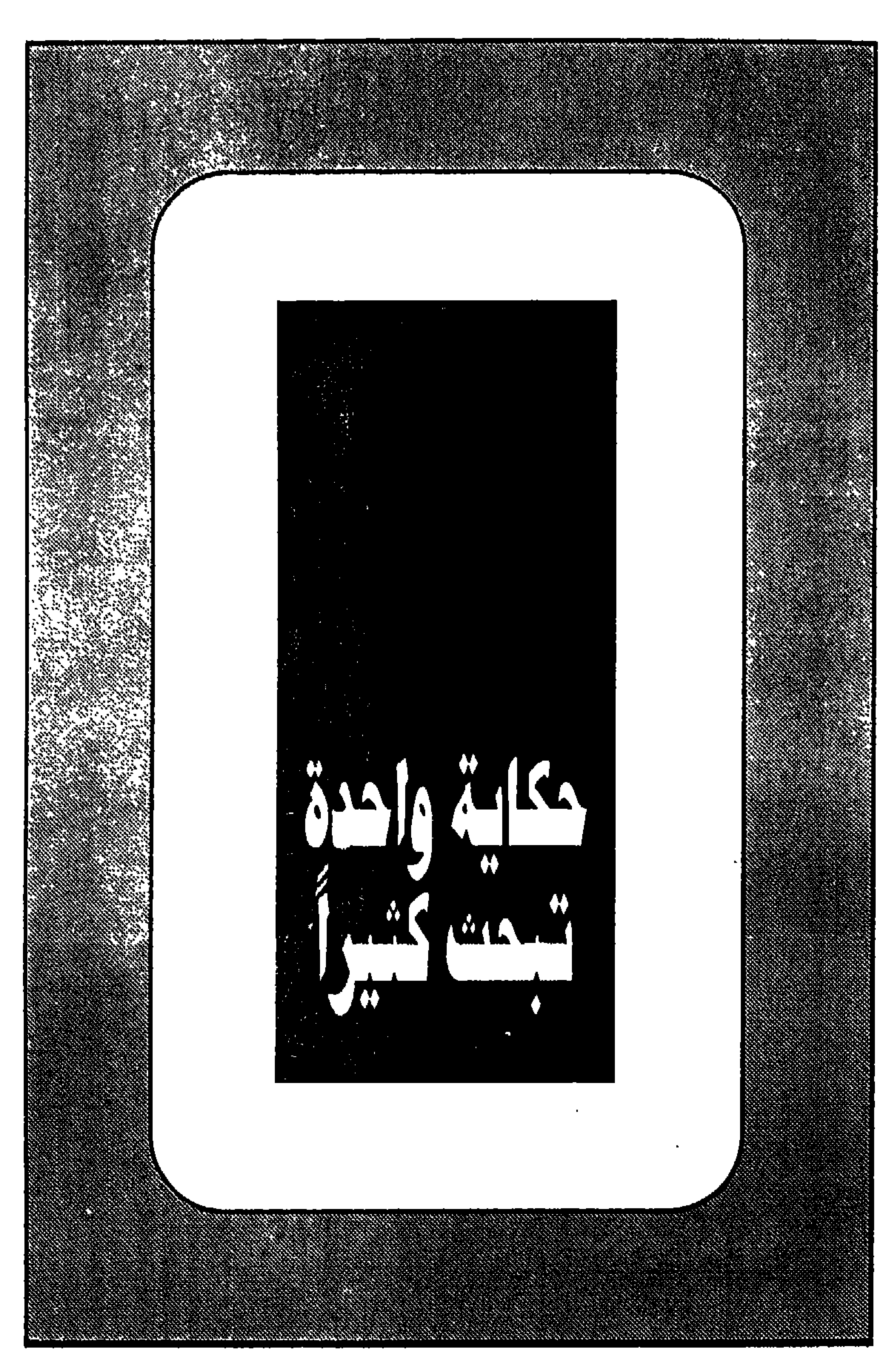
ويصيح رجل عند حافة الطريق

ـ وحدوه.

وتقف السيارات والحمير والعربات، والرجالة الذين يحملون احمالا من الزيتون والليمون من الأسواق القريبة، وأمر أنا وموكبى من مفرق الطريق، ونسير..

سيدى لا أحد يفهم.. لا أحد.

الشمس تغرب دائما على الشاطئ الغربى من النيل العريق. حيث الأهرامات بلا طبقة الكلس التى كانت تكسوها، وابو الهول بلا أنف، والتماثيل المحطمة، والمعابد، الأطلال، الأعمدة، البقايا...


حكاية واحدة
تبحث كثيراً



قالت:

- أستاذ، أحب أن تقرأ بحثى.. صحيح اننى لم أكتبه لك، وإنما كتبته لأستاذ آخر. ولكنى أحب أن تقرأه..

ودفن رأسه بين الورق وجعل يقرأ.. وكان البحث غريبا.. فالبنت تتحدث عن الجنس.. ورفع رأسه عن الورق فارتطمت عيناه بعينيها.. كان فى عينيه تساؤل دهشة، وكان فى عينيها تحد واستعلاء..

قال لنفسه: إن البنت تتحدانى أن أحجر على حقها فى البحث فى مسائل الجنس.. وقال لنفسه: إن البنت تسخر من قدرتى أن أكون على مستوى التحرر الذى أعلنه فيما أكتب وفيما أقول.. وقال لنفسه: إن البنت تحس باستعلاء طبيعى إذ اخترقت حاجزالصوت، واجتاحت منطقة محرمة على مثيلاتها، بل جنسها كله.. على الأقل بكل هذه الدقة والفهم والاستيعاب، وعاد يدفن رأسه فى الورق من جديد - يمر على الصفحات ببصره وواعيته، وإذا هو جنس صريح لا اخفاء فيه ولا تورية فى الكلمات المستعملة.

وحين رفع رأسه إليها، كانت نظرة التحدى مازالت موجودة، وإلى جوارها كانت تملأ وجهها ابتسامة لزجة خبيثة.. مليئة بالتحدى الساخر.

وللحظات لم يفهم، فسكت.

كانت البنت حلوة وأنيقة، وما تفقده فى الجمال الصارخ يغطيه اللبس المنتقى، والزينة المدروسة، ولم يكن فيها ما يمكن أن ينفره، أو يبعده عنها.. وكانت تنبعث منها رائحة هادئة ولكنها ملحة ومستمرة ومستفزة فى آن واحد..

والتقت عيناه بعينيها.. هذه النظرة المستفهمة منه، وهذه النظرة المتحدية منها.. وطالت النظرة حتى أطرق هو، وابتسمت هى فى ارتياح..

وعاد يدفن رأسه فى الورق من جديد.. كيف يبعد عنها تماما، كيف ينسى أنها أمامه وأنها وجود يفرض نفسه..؟ فقط يجب ان لا يرفع عينيه الى عينيها، يقرأ ويقرأ وينصرف عنها تماما إلى القراءة..

هبت نسمة تحمل عطرا، العطر يحمل كلمة، قولا، فكرة، رفع رأسه فاصطدمت عيناه بقدميها.. الدوامة تدور، وهو لا يعرف لها نهاية، الندى يمر، ثم يليه الندى الآخر، ثم وجه مبتسم، ثم عينان تقول نعم، نعم وعينان تقول لا، وكل شىء يدور.. من الذى جاء بهذه البنت الى هنا؟ الفم ينفتح فى ابتسامة، الفم ينفتح فى كلمة صامتة، الفم هادئ الفم ثائر مخيف، وأنت ملعون ملعون، يا سيد أنت ملعون.. الكعب مدور

أحـمـر، فى لون الورد، بل فى لون الدم، مـا الذى لفـتك إلى الكعب الأحمر، ربما الحذاء الأبيض، الساق الوردية المنسدلة تمتد كأنها جزء من تكوين لم يكمله فنان فتنه جمال ما يصنع..

نسيت نفسك، أنت فى سن أبيها..

كل الصور تأخذ وضعها الطبيعى.. ويعتدل كل شىء، والبنت تواجهك بوجهها، وقدماها فوق الأرض فأنت تراها، والبحث أمامك، وأنت تقرأ من جديد.

وقالت:

- يا أستاذ.. ما رأيك..؟

ورفع رأسه إليها فى صمت، كان وجهها ملتهبا بالحياة، وكان هو يحس أن الحياة قد غادرته من زمن - وما كان يستطيع أن يجيب عن سؤالها.. ألف ألف كلمة بينه وبينها ألف ألف تعبير يحول دونها ودونه، فقط صمت.. ثم رفع رأسه فى شجاعة مفاجئة، وثبت نظرته فى ثقة الى وجهها وقال:

- هذا بحث عظيم.. وجهد ضخم، وأنت لاشك على الطريق إلى شىء كبير، لو استمرت قدراتك بنفس عطائها.

ضحكت، فذاب، ولم تحس به فقد كانت تضحك بحرية وسعادة وهى تقول:

- جميل رأيك هذا يا أستاذ .. فالكل يخالفنى ويمنعنى أن أنشر هذا البحث.

ووجم، فقد اقتربت منه حتى فاح عطر شعرها فمسه وحرك فيه مشاعر صارخة ينبغي أن يقهرها، وينبغي أن يحجبها.

وعادت تقول وهي تمس كتفه بأصابعها الطويلة الرقيقة الصاخبة في لمستها:

ـ هل تنشره لي؟

أفاق، فالتفتت إليه وهو يهز رأسه كأنما ليبعد عنها نسيجا متضاغطا يلفها ويمنعها من الحركة وقال:

ـ أنشره لك..؟ ماذا أنشر لك؟

ضحكت وقالت:

ـ هذا البحث.

العطر ازداد أريجه، انتشر حتى ملأه، حتى احتواه، حتى لفه في غلالته. وأي عطر هذا؟ نسيج من الياسمين والبنفسج، والبصل.. إنه ريح يهب كالإعصار، ويحس أنه يترنح ويخشى ثقل رائحته، يخشى إلحاح رائحته، يخشى إصرار رائحته.. ويهمس في ضعف:

ـ نعم هذا البحث..

كانت تقترب وتقترب، الرداء مضموم في عنف، وكل شيء ينفر منه في إدلال ووضوح.. الثديان ينفران، يتحديان الثوب، يقهرانه، ويقولان ويصرخان ـ الثوب شديد الالتصاق، والهواء ثقيل والحر لافح، والعطر فواح والياسمين، النرجس، الليمون، البصل.. فواح فواح..

قصة الثوب عند الخصر، والبطن مكور بارز بعض البروز وهي تقترب وتهمس:

- أنا هنا يا أستاذ، أين ذهبت؟

وكاد يضيع.. بل هو ضاع.

مد يديه فاحتواها في صدره ومد وجهها فاحتواها بين شفتيه، ومد وجوده فاحتواها كلها مرة واحدة.

وهمست، وتنفست في وجد وشوق، وأفاق..

أبعدها عنه قليلا وهمس:

- أنت حلوة ورائعة ولكن.. أنا أستاذك.

سكتت .. وتوقفت، هنا كانت.. وهنا اختفت..

- لو أمكن أن يأكل الكلمات، لو أمكن أن يسكت صوته، لو أمكن أن يصمت، أن ينسى كل هذا الذى قاله، ولكنه قال وتكلم وانتهى الأمر

وتراجعت..

وجهها هدأ، وهذا المد الشيطاني في عبثها تحول الى اتهام وإدانة.

لمست نفسها ولم يعد فيها ما تعرى، كل شيء دخل في كل شيء، فإذا هي معه مجرد إنسان يواجهه بكل التحدى والعنف.

وقال:

- لم أقصد أن نغدو أعداء.

قالت:

ـ لم أنس لحظة أنك أستاذى وما كنت أريد إلا رأيك .

وتضاءل فى داخله، شىء فيه انكسر، شىء فيه تصدع.. شىء فيه انهار.. تذكر ليالى الوحدة المخيفة وليس معه إلا الورق والقلم وذكريات حب قديم.. ولا شىء ولا أحد. هى حلوة شهية ومتاحة

ولكن. ياتعس لكن..

ماذا يريد أن يفعل، وكيف يواجه ما يفعل؟.. الليل انقض على النهار فأحاله إلى لاشىء لا هو نهار ولا هو ليل.. الحب انقضت عليه الكراهية، فأحالته إلى لا شىء، لا هو حب ولا هو كراهية.. الأبوة انقضت على الاشتهاء، فإذا هو لا شىء .. لا الحب دام، ولا الاشتهاء استمر، لا الكراهية موجودة، لا وفاء الرجل ولا المرأة موجودة.

مزيج من كل شىء، ومن لا شىء.

ما معنى كل هذا؟

كانت تقف فارعة، مدلة بجسدها، النديان نافران والبطن هضيمة، والعجز بارز، وضحكت وعيناها تلمعان من جديد. وأحس أنه يموت..

شىء صلب فيه منعه أن يمد يده، أن يمد وجوده ليأكل كل هذا.. شىء متاح وواضح وصريح ولكنه كان دائما يتذكر أنه فى سن أبيها.. وأنه استاذ.

وكل أيام الجـوع، كل أيام الضـيـاع، كل أيام الحـرمـان، كل أيام الوحدة القاتلة القاسية العنيفة ولكنه أستاذ.

لن تدخل البنت أبدا على يديه إلى عالـم غامض مشوش مخيـف، ما له ولهذا، بل هو كل هذا وأكثر.. يا ولد، ظللت تردد الكلمات لتعيش بهـا، وهأنت تموت بالكلمـات . يا ولد.. يا ولد.. داخ.. ودارت بـه كل الأشياء، وهى مازالت ماثلة أمامه بكل نظراتها ورغباتها وتقول:

ـ لم أنس لحظة أنك أستاذى.

والدوامات تدور فى رأسه، وكل شىء ينقلب ويدور، ولا يعرف له معنى إلا أنه موجود. الرغبة هى كل الوجود.. ولن تخضع للموجود. بل تريد المعنى،فالرغبة ضاعت، وانقهرت وانصرفت، وإنك وحيد.. مع كل ما تحب كتبك، أفكارك، مثلك، تعيش من أجل وهم عريض بدأ وطال واتصل. ثم لا شىء.

هى تلم نفسها .. وهى تتراجع متهمة مدلة، ساحرة، قوية.

وأنت يا أنت

أحس أنه عـجـوز منهك ومـتـعب، أحس انه قـد بلغ المائة، وأنه ينحدر بعدها إلى الهاوية أحس أن كل شىء قد هدأ واستقر وضاع.

قال كأنما يعتذر، كأنما يريد للكلمات أن تنقل إليها حياة كاملة تتحطم فى داخله:

ـ أنت شىء عظيم.. أنت كل شىء.. ولكن .. ولكنى.

وصمت وأطرق .. ونظر إليها فى حزن. لملمت كل شيء.. ثم ضحكت عابثة معاتبة لائمة، ساخرة.. ومضت.

وجلس وحده يلملم أشلاء لا تلم.. فقط أحس أنه أخفق فى شيء ما ..أن شيئا ضاع وانتهى وأنه حزين.

خرجت، وجلس وحده يسأل:

ـ كيف أهمل رائحة القرنفل، كيف نسى أنه إنسان..

رد على نفسه يقول:

ـ اترك مكانك هذا وافعل ما تشاء ، تنكر لكلماتك، لماضيك، لمثل تحب أن تكونه، وافعل ما تشاء ويعود ويقول:

ـ والعطر والريحان.. ورائحة البصل الحادة الرهيفة..

ورد على نفسه يقول:

ـ وإنك تحاول أن ترد كل كلمة للغد وأنها بعد حين كل الغد.

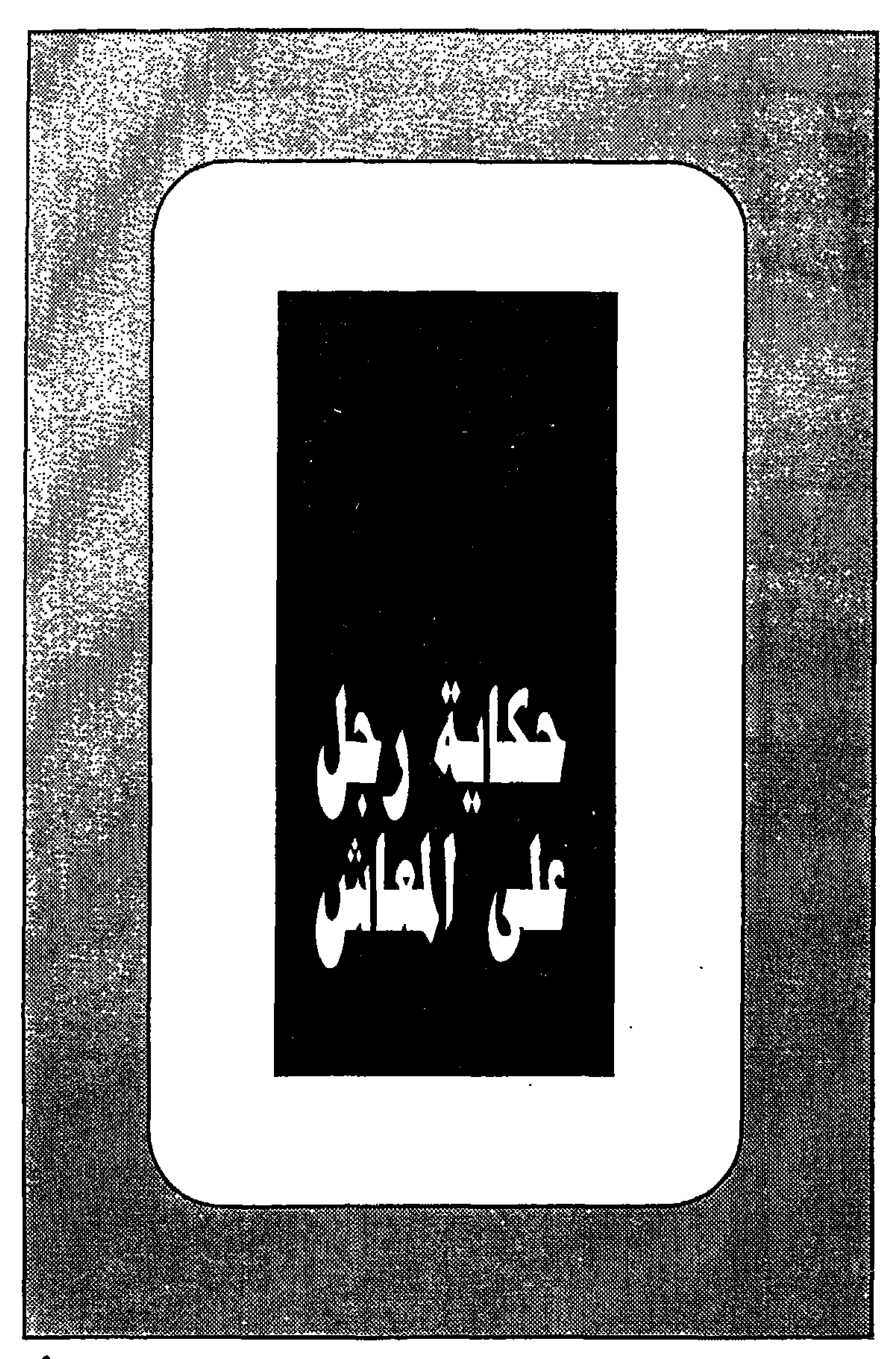
ويصمت

وكل عثرات الرجال تملأ وجود إنسان حى، يريد أن يظل حيا.. هيهات، فما الأحياء إلا مجرد أرقام..

ومن جاء رقمه.. مات..

وساعتها يتحسر أنه لم يعش كإنسان، وأنه مات كرقم.

رقم مات.. وماذا فى أن رقما مات..


حكاية رجل
على المعاش



حكاية رجل على المعاش

قالوا لى:

- لا يمكن أن نقبل استقالتك أو حتى تسوية معاشك حتى ينتهى النظر فى قضيتك..

ثم همسوا، وفى العيون نظرات خبيثة متعالية:

- لاتنسى أنت محول إلى محكمة تأديبية.

ولم يكن أمامى إلا الانتظار . ومع الانتظار الاحتمال والتحمل.. احتمال وتحمل الأستاذ منصور والأستاذ عبد الله والأستاذ الحلوانى والاستاذ الباجى، والاستاذ الزعفرانى.. وكلهم فى الديوان بكوات - أعنى أن أسماءهم عند الموظفين فى المتحف الذى نقلت إليه، منصور بك وعبدا لله بك والحلوانى بك والباجى بك والزعفرانى بك.. والمتحف لو كنت تريد أن تعرف، دور فى عمارة بلا اسانسير، وبلا أثاث حقيقى، وبلا شىء.. حتى البنت التايبست التى طلب منها الأستاذ حسين أن تكتب لى مذكرة ضم مدة الخدمة رفضت أن تكتبها بإشارة من يدها، وهزة من رأسها فقد كانت منهمكة فى قراءة مقال صحفى

لامع عن القادمين من السماء ـ هكذا كان العنوان الضخم يقول. وحاول الأستاذ حسين، أو حسين أفندى فهو ليس بيكا من البكوات ـ أن يفهمها أننى مستعجل، وأننى ضعيف .. تصور ضعيف..؟ وإننى موظف كبير فى الإدارة، أقصد المتحف، أقصد الخرابة، أقصد العفن، فهى تقرأ حول القادمين من السماء، ولن تترك الجريدة ولم تفطر بعد، وإيه يعنى، هناك لا يعمل شئ، ويا سلام. . ولم تكتب المذكرة، فأخذتها منه وكتبتها بيدى، وأعنى بخطى القبيح الذى لا يقرأ.. ولكن.. الصبر طيب يابك.. وصحت، لا يا حسين أفندى لست بيكا ولن أكون.. وابتسم الوجه الطيب الرقيق، وأخذ الورق فى اعتذار . مع هذا فليس فى يده شيء وعلىّ أن انتظر قرار المحكمة التأديبية أو حكمها فى تلفيقة مجموعة العمل القذر الذى مد نسيجه ليحط برقبتى خمسة عشر عاما كاملة. وانتظرت فى صبر ممل، وفى احتمال كئيب لكل ما تمخضت عنه أذهان البكوات الذين يعيشون نهارهم فى الدور الخامس فى العمارة المتداعية.. أعنى فى الديوان الذى يشاء غل ضابط فاشل صغير السن أرادوا أن يتخلصوا منه فجعلوه وكيل الوزارة أن أنقل إليه. ولماذا لا، يا سيد أنت موظف تقبض مرتبك، فعليك أن تخضع للوائح والقوانين والتعليمات.. فإذا لم تخضع لها تنقل إلى هذه العمارة بلا أسانسير فى الدور الخامس من حيث العنكبوت، أعنى الإدارة.. ورق يملأ وورق ينسخ، وورق من مكتب الى مكتب ثم إلى سلال المهملات ودواليب متهالكة لا يعرف أحد ما بها.. وتم عمل الإدارة، المراقبة، الوكالة، الوزارة..: تم العمل والسلام..

يا نجمة الفجر اليقظة وسط العتمة، وكل وجهك مساحيق، وعلى شفتيك أطنان من لون الدم قدمتها مصانع التجميل، ويهتز شعرك الذى تعب المصفف فى تجميله وتجميعه وتضميخه، ولا أحد يراك هنا فى سروالك الساذج المسطح، الذى لا معنى له إلا أن يكشف عن هزال ساقيك العجفاوين، يا حلمك أنت وحدك.. لماذا؟.. المذكرة كلها صفحة واحدة، ولن يحاسبك أحد يا حلوة، تعبت من قراءة الأشياء الرخيصة، وتعبت من ضيوف الأحلام، فلماذا يا رخيصة كل قسوتك وعنفك ورفضك القاسى المهين.. قال حسين:

- نحيلها الى التحقيق يابك.

قلت:

- لماذا يا حسين يا أخى، هى لا تخاف إلا من المديرين العاملين وأنا مدير غير عامل، بل لست مديرا أصلا، أنا محال للمحكمة التأديبية، وهى تسلك السلوك الطبيعى لفتاة مثلها، تريد أن ترقى، وأن ترضى الكبار، وماذا يرضى الكبار من أن ترفض مثلى..

وضحكت ثم قلت:

- ومثلك..

وضحك، ونظر إلى وفى عينه تساؤل؟ فقلت:

- لا تشغل بالك بى كثيرا، فهذا لن يرضى أحدا من البكوات أعنى الأساتذة ، أعنى المديرين، أعنى العنكبوت، أعنى الآلهة.. رحمنا ورحمهم الله..

وضحك ضحكة باهتة، ثم جمع أوراقى فى يده وانصرف.. وانصرفت..

ليلتها لم أنم قلقا وغيظا وضيقا، وأنا كنت عودت نفسى أن تبعد عنها القلق والغيظ والضيق.. ولكن ما فى الأمر حيلة.. وما مرنت نفسي عليه شيء، وما أجدها واقعة فيه بلا إرادة منى أو منها شيء آخر لا مهرب منه ولا فكاك.. وقضيت ليلتى أتذكر كل صور أمس.. مشرقة مضيئة بالعمل، محيطة مهينة بالإجهاض والمؤامرة.. وضحكت فى نومي حتى أقلقت زوجتى، وبكيت فى نومى حتى بكت زوجتى ولكنها أبدا لم توقظنى، ظلت إلى جانبى ساهرة تجفف العرق البارد المنداح فوق جبهتى، وتعدل من وضع الوسائد حولى، وتبكى فى صمت حتى لا تؤرق نومي الذي غدا عزيزا ونادرا كلما تقادمت الأيام وازداد الانتظار والعذاب.. وكان الكابوس ثقيلا شديد الوطأة، مباشرا يستدعى كل العذاب.. لم أشهد أسدا ينهش كتفى، ولم اقفز من فوق الجبل لأقع فوق صخور مدببة تمزق جسدى، ولم يغمرنى موج البحر ليخنق كل أنفاسي ويميتنى جزءا جزءا ولم تلتف حول جسدى أذرع التنين، ألف ذراع، كل ذراع يحمل ألف مخلب ماص، يلتصق بجسدى، ويشد كل عضلة إلى ناحية، كل قطرة دم إلى مخلب، كل وجود إلى ضياع وعدم.. أبدا لم يكن الكابوس يحمل كل هذه المعالم التى رسمت كوابيس عرفتها ليالى المعاناة سنوات طويلة منذ أول المحن.. لا كان الكابوس واقعيا، كأننى أرى فيلما سينمائيا من انتاج هذه الأيام، كانت الحجرة مستطيلة وضيقة، وأمامى مائدة طويلة، جلست خلفها مجموعة من الأفندية، حرصوا على وجود الكرافت، والجاكيت المحكم الأزرار،

وراءهم ساع غريب الملابس، وعلى مائدة مجاورة واحد تعس مثلى يكتب ويكتب، ولا يرفع رأسه أبدا.. وكانوا خلف المائدة ثلاثة.. في الوسط رجل مصمت أسمر شديد السمرة، كئيب شديد الكآبة.. وعلى اليمين رجل لا ملامح له.. وعلى اليسار رجل ظريف يبتسم في وجهى كلما تقابلت عيوننا.. وصمت يسود القاعة المستطيلة الضيقة حين يضع صاحب الوسط، صاحب النظارة السوداء نظارته فوق عينيه ويقول في صوت ميت:

- هذا هو الاتهام الموجه اليك، هل أنت مذنب أم غير مذنب؟ أجب.. وينثال عرق بارد على جبينى وأصرخ، وتمد زوجتى ذراعيها تحيطنى بهما فى اصرار وتشبث وحب.. ولكنى أصرخ وأصرخ:

بريء... بريء ... بريء...

وينظر إلى الرجل إلى عينى فى استعطاف وألتفت إلى نفسى، إلى جسدى، وأرى أصابعى معقودة عند جيب الصديرى، وهو ينظر الىّ نظرة آمرة ومستعطفة فى آن. . وفهمت، عيب أن أقف أمام القاضى وأصابعى فى هذا الوضع الكريم.. وعيب أن أكون كريما أمام القاضى، فالكل أمام القاضى أذلة، خاضعون، أقل منه قيمة وقدرا، فهم مجرد متهمين، وما أنا الا مجرد متهم.. ينظر إلى الأوسط وراء نظارته السوداء، والأيمن بعيون مبتهلة تريدنى أن أنسى من أكون، وأن أذكر فقط اننى متهم.. أما الأيسر فهو ينظر الى الورق ولا يرفع رأسه أبدا.. ومن غير أن أحس، أخرجت أصابعى من جيب الصديرى واعتدلت، ثم مددت يدى أعدل رباط العنق والجاكيت والأوسط يهز رأسه فى راحة

وسعادة وموافقة.. هذا رجل كسر.. رجل كسرناه ليعرف حجمنا نحن.. ومن هو بين الرجال. مجرد متهم.

وصرخ الحاجب خلف القاضي، خلف المنصة..

- المتهم حاضر يابيك..

وأنا برىء، برىء، وتفضل يا سعادة البيك.. وتؤجل القضية الى جلسة الشهر القادم، ونحن خدم سيادتك، والجنيه في يده، وأنا خارج القاعة، المكان، والهواء شيء حلو.. والسيارات والأبواق، وأصرخ وأصرخ.. وزوجتي تبكي إلى جواري وتهمس في صوت خافت..

- كابوس .. ما ألعن هذا الكابوس المخيف..

ثم أفيق .. وعرق بارد ينثال على جبيني، ويد حانية تمسح العرق، ودموع مخلصة تبلل الجبين من جديد.. وتنتظم أنفاسي تدريجيا، ثم تغمض عيناى وأنسى كل شي وأنام من جديد.

ويقول صديقي لا تنزعج، فهذا هو حال محاكمنا اليوم.. أنت تعرف أنا مستشار وقاضي أيضا ولكن ما نحن فيه هو ما نحن فيه دائما..

قلت يا سيد ، أنت، وأنتم على العين والرأس، ولكن من الذى أوهمكم أنكم بشر فوق البشر، من الذى أدخل في روعكم أنني حين أقف أمامكم أعدل وضع الجاكيت والكرافات والقميص والياقة.. وأطأطئ من نفسي لأكون أقل منكم بشكل أو بآخر؟.. من .. أخبرني بربك من؟

وكيف ومتى حدث أن القاضي قد غدا فوق البشر.. فوق الكرامة.. فوق معنى الإنسانية..؟ أخبرني لأسكت وأريحك وأريح نفسي..

وقـال: ولكن عليك أن تكون بهـذا الأدب أمـامـه وإلا.. نعم وإلا ضاعت هيبة المحكمة..

قلت: يا سيد.. أنتم بداية الطريق والهوان، يا سيد

قاطعني في ضجر قائلا:

- هل ستخطب..؟

وكأنما انهال عليّ ماء مثلج من (جردل) ضخم.. فسكت وهمست في ضعف وتخاذل:

- ولكنني اندفعت وقلت للرجل أنا بريء، أنا بريء كأنني مجرم يدافع عن نفسه، ويدفع الاتهام بصوته وصراخه، كأنني لص أو قاتل أو نصاب أو مختلس، كأنني..

صاح في حزم:

- كف عن هذا تماما، فما فات فات..

وصرخت في وجهه:

قلت له أنا بريء، أنا بريء، أنا بريء..

وأفيق من جديد، والعرق أشد برودة، واليد الحانية أشد رقة وهي تهمس وسط دموعها:

- كفى فكلنا يعرف أنك برىء..

وأخرج من الكابوس المخيف .. لأفتح عينى فى صعوبة وتعاسة وتقول:

- انتهى كل هذا من زمن.. انتهى..

وفى هذا الصباح، ضرب إلىّ الصديق التليفون ليقول مع الضحى:

- مبروك .. انتهت القضية وحكم القاضى بالبراءة.

وسمعته دون أن أفهم. وعاد يقول على التليفون :

- لماذا سكت، أليس هذا خبرا مفرحا.. أحببت أن أخبرك، قبل أن يتحدث المحامون إليك، فأنا أعرف أنك وكلت ثلاثة محامين، والقضية لم تكن تحتمل كل هذا العدد، ولا كل هذا الجهد، ولا كل هذا الإنفاق.. لم أكن فى الحقيقة أسمعه، فقد انثالت أمامى الصور، واحدة إثر الأخرى تتعاقب فى إصرار عنيف، بعضها يبعث الدفء، وبعضها يثير الزهو، وكثير كثير من هذه الصور لا تبعث إلا الاشمئزاز والقرف..

عاد يقول فى إصرار:

- لماذا سكت .. مبروك..

قلت فى حزم وسأم:

- سمعتك منذ البدء، ولا أجد فى نفسى ما أقوله..

ولكنك تجد فى جيبك ما تدفعه للمحامين؟

- أنت لا تفهم، لقد دفعت لهم ثمن ألا أقف أمام زميلك القاضى..
لم يكن ما عندى خوف من القضية أو الاتهام، وإنما ما عندى كان خوفا من المهانة أمام من تضخمت ذواتهم.

صرخ:

- كفى . فأنا قاضٍ كما تعرف..

قلت:

- ولك أن تفخر بهذا،لهذا الحكم فخر لمن يقاومون كل الضغوط ويرفضون الانحناء.. إن الذى...

صاح فى التليفون:

- كفى هل ستخطب من جديد.. نحن يا سيد نقوم بواجبنا فقط؟ فإن لم يعجبك أسلوبنا فى أداء واجبنا فتستطيع أن تقفز بجسدك كله إلى نهر النيل. فنحن لا يهمنا رأيك وإنما يهمنا معنى العدالة.. وفى سبيله يهون كل شيء..

جاء دورى لأسأله فى سخرية:

- أتخطب؟

ضحك ثم ضحك، وقال ضاحكا:

- اسكتنى لعنك الله.. المهم مبروك. أنت الآن حر تخرج من الوزارة.. وقتما تشاء.

ضحكت من كل قلبى وأنا أقول له:

- تعلى غدا..

صاح فى ذعر حقيقى:

- اصبر يا رجل ابحث الحالة كلها، ولا تخرج إلى المعاش إلا وأنت مطمئن إلى أحسن الشروط..

ضحكت وأنا أقول:

- أحسن الحالات هو الآن يا صديقى..

وأغلقت السماعة وهو مازال يتحدث، وقفزت خفيفا الى حمامى، أغنى تحت (الدش)، وأصرخ بامرأتى والأولاد، أن يعدوا الإفطار، والبيض معقول النضج، والشاى متوسط اللون، وسكره قليل.. واين صوت الراديو وهاتوا المنشفة.. وحين خرجت من الحمام كان كل فى ذهول قرءوا الجرائد ولم يكن بها أى شىء عنى، فقد نسيتنى الجرائد منذ زمن، وفتحوا الراديو ولم يجدوا أى شىء لى فقد هجرنى الراديو من زمن.. ولم يفهموا إلا أن مكالمة التليفون تحمل لى ولهم شيئا.. وضحكت وقلت لهم وأنا أنشف بقايا الماء من أذنى وشعرى:

- خير يا أولاد خير..

وضحكت وضحكت امرأتى، ولم يضحك الأولاد، لم يفهموا، لماذا نضحك وكل أيامنا ولياليا تعاسة وحزن: ولم يوقفنى هذا، فقد كنت سعيدا منتشيا ولم أكن أحفل بأحد وقلت:

ـ سأذهب الى الوزارة هذا الصباح..

وصمتوا جميعا، ونظروا إلىّ فى دهشة.. وظلت نظراتهم المفعمة بالدهشة تملأ خاطرى وأنا أغادر الأتوبيس وأدخل مبنى الوزارة الضخم، حتى لفتتنى نظرات الدهشة تطل من وجوه البكوات والاساتذة والمديرين والمديرات، وأصحاب السطوة، وصاحباتها، الأحياء منهم والأموات، وهمس حسين أفندى فى أذنى:

ـ ألست متعجلا؟

قلت فى صوت ثابت مفعم بالثقة والهدوء:

ـ لا لست متعجلا إنما أنا واثق..

نظر إلىّ فى دهشة تساوى دهشة أولادى فى الصباح، ودهشة المديرين عند الضحى وسكت.. وقلت أنا:

ـ يا حسين أفندى، نترك التعجل للبكوات.. البيك مدير عام، والبيك نائب وزير، والبيك وكيل وزارة.. فأنا لا بيك ولا حاجة. أنا رجل يقدم استقالته من العمل.. ولا حائل هناك.. أم هناك حائل يا سادة.. أسرع حسين أفندى يقول:

ـ لا، طالما تحضر لنا صورة من حكم المحكمة بسقوط الدعوة التأديبية أعنى بالبراءة، فلا حائل قانونى يمنع قبول الاستقالة..

كان متحمسا، وكان وجهه الشاب الغض قد احمر انفعالا.. وقال الباجى بك أولعله التاجى بك أو لعله الماجى بك، قال بك والسلام:

ـ بل لابد من موافقة السيد وكيل الوزارة. ثم إن..

وقال الحلوانى بك، أو لعله الفكهانى بك، أو لعله الكنفانى بك، قال بك والسلام:

- ثم موافقة اللجنة العليا لشئون المستخدمين .. إن الذى..

وقال الفسخانى بك، أو لعله السمكانى بك، أو لعله السردنياوى بك، قال بك والسلام :

- ولابد بعد كل هذا من موافقة السيد الوزير.. هذا ولكن..

وصاح حسين أفندى الذى كان يجيل بصره فيهم فى دهشة وذعر:

- ما هذا يا سعادة البكوات البهوات الاغوات، الاستقالة الآن من حقه، يقدمها فإن لم يجبه أحد سيستقيل فعلاً وقانوناً بعد خمسة عشر يوماً من تاريخ تقديم الاستقالة.. أو كما قال:

وسكت البكوات، ونظر كل منهم إلى الآخر فى حيرة.. وتنحنح أحدهم وقال:

- ولكن كيف نفرط فيك وأنت كفاءة عظيمة..

وقال الثانى:

- اسمك سيملأ البلد من جديد يا بيك بعد انتهاء شبح القضية..

وقال الثالث:

- وسيعود الخير يتدفق من يديك لمن حولك يا بيك..

ولم أكن أعرف أنني بكل هذه البكوية.. ضحك الأستاذ حسين الذى هو ليس بيكا على الإطلاق وضحكت أنا أيضاً فقد كنت بيكا سابقا، أما مع هؤلاء البكوات فأنا الأفندى الذى جاءهم مغضوباً عليه.. الصدفة وحدها أعطت اسمه شيئاً من الشهرة.. ولكن.. لا يهمنى.. ورحمة أمى، وحياتى وأولادى إن لم يسر على العجين لا يلخبطه، للخبطت له حياته.. نحن ناس أيضاً لنا أسماؤنا وقد راتنا وقد أدينا واجباتنا بأمانة طوال هذه السنوات. فماذا كانت النتيجة.. يأتى هذا الأفندى الغريب ويفرد نفسه علينا، لا ينبغى أن يعرف أنه جاءنا هنا لنؤدبه، نعم نؤدبه ونحن سنعرف كيف نؤدى المهمة الوطنية التى أناطتنها بها الدولة.. نعم أناطتنا ـ فهى طريقة هذه الكلمة.. أقول: يجب أن نؤدبه..

وعاد الأول يقول:

ـ وستوحشنا فالعلاقات الإنسانية..

وقال الثانى:

ـ ثم ان...

وقال الثالث:

ـ لا تنسى أننا فى وقت محنتك شلناك فوق الرءوس.. ولم نقصر أبداً..

أسرع الأول يقول:

ـ ونحن نعرف الظلم الذى وقع عليك، ياه، أنت بطل فى احتمالك له والصمود أمامه..

وقال الثانى:

ـ ظلمة.. ظلمة.. ثم أن..

وقال الثالث:

ـ وستشرف وزارتنا دائماً بأنك يوماً ما كنت موظفاً فيها.. يا سلام.

وقال حسين أفندى:

ـ تعال معى ننهى الإجراءات..

وكنت سعيداً وأنا أكتب طلب الإحالة على المعاش، وسعيداً وأنا أطلب ضم سنة إلى مدة الخدمة، وجد حسين أفندى أنها من حقى، سعيداً وأنا أرى علامات الدهشة والذهول على وجوه البكوات الذين لم يكن بالمستطاع أن يفهموا سر سعادتى بالخلاص أخيراً من قيد مقرف كان يحطم أعصابى، ويمتص رحيق وجودى نفسه.

وبعد أيام قال:

ـ تم كل شىء وصدر القرار، وتعال خذ أوراقك.

كنت سعيداً وأنا أحكى لها ما حدث وضحكت أنا وضحكت هى.. وقالت:

ـ فى الغد أصحيك لتغير بطاقتك الشخصية والجواز فأهم نتيجة لما حدث هو أن تغير جواز سفرك.

وكنت أحس أنها تتمالك لتبدو شجاعة أمامى، وتجاهد لتبدو أنها مطمئنة للغد، فقد غدا الغد بلا سند إلا عرقى وحده.. ولكنها كانت تحاول أن تبدو واثقة من كل شيء..وأدخل هذا البهجة على نفسى فضحكت أنا الآخر، وضحك الأولاد، وفى عيونهم تساؤل، وشيء يشبه الخوف والقلق.. ومع هذا فقد أشرق علىّ الصباح الثانى وأنا مازلت أضحك وأبتسم، بل لعلى كنت أكثر ضحكاً وابتساماً من أى صباح آخر فى حياتى:

وقالت زوجتى:

ـ لا تتردد، تذهب اليوم لتغير البطاقة والجواز..

قلت:

ـ نعم..

ودهشت هى، فأنا عندها فى مثل هذه الأمور كسول، لا يرجى منه حركة، وعلى مدى عمرى الوظيفى كله بخيره وشره، لم أتحرك لشيء أبداً.. وكانت معاناتها الكبرى أن تذكرنى بالمواعيد، وأن تدفعنى دفعاً للوفاء بهذه المواعيد..

اجتماع فى مكتب الوزير، أنام يا خلق الله أنام.. لابد من تقديم الإقرار الضريبى.. هل أنا عبد، ما هى لابد هذه، إنها لا توجد إلا

للعبيد.. الموعد انتهى.. يا ست الموعد لا ينتهى إلا إذا مات الإنسان، وإلا إذا تحول إلى رقم، إلى مجرد شيء لا وجود له، مجرد آلة تتحرك بالأمر مرة كل عام، وإلا فالويل والثبور وعظائم الأمور.. أرجوك اتركينى أنام فأنا لا ضرائب على ولا شيء عندى إلا الفقر والعدم.. ولكن؟ لا لكى.. فليس عندى شيء، لست سباكاً أكسب ولا أدفع الضرائب لأحد، وأفرض وجودى السمج وأجورى الأكثر سماجة على سماجة كل أحد، ثم أترك كل شيء مدمراً أكثر مما كان قبل أن أجيء.. ولست واحداً من الفعله الذين يجيئون إلى العماره الجديدة المقابلة لنا كل صباح بالتاكسى وكل واحد يحمل أدواته، وينزل من التاكسى سعيداً قريراً لأنه يكسب كل يوم عشرة جنيهات لا يدفع منها مليماً، ولا يسأله عن مكسبه أحد، لا إقرار ضريبى ولا دياولو.. القصعة فى يد، وآلة التسوية فى يد، والسلام عليكم.. وادفع يا سيد ضرائب عن كل كلمة تكتبها، وكل محاضرة تلقيها، وكل فن تبدعه، أما هذا الولد المقشف القدمان فيشرب المارلبورو ويركب التاكسى، ويبصق فى وجهك، ولا ضرائب هناك.. وتقول: ولكن موعد الإقرار الضريبى حل، ونحن لسنا فى حال تسمح بزيادة البلاوى.. وما كل هذا العقد الاجتماعى الغريب الذى يربطنا ببلدنا إلا مجموعة من البلاوى..

أما هذه المرة فقمت معها فى الصباح نشطاً بالفعل، مبتسماً بالفعل، مريداً بالفعل.. أحمل كل أوراقى معى إلى حيث الخلاص.. فاليوم أنهى كل علاقة لى بخيط العبودية والعقد.. وكنت بالفعل نشطاً حياً يقظاً موجوداً، وهذا فى هذه الأيام كثير.. وضحكت ونحن ندخل

المبنى المتهالك القديم.. بل لقد أسرعت أجارى خطواتها فوق الدرج العتيق، من دور إلى دور، وهى تنظر إلى فى قلق واضطراب، فما كان الطبيب ليرضى لى بعد كل أزمات القلب التى توالت على مدى العمر، أن أسرع فى الصعود على الدرج بكل هذه الهمة.. ولكنها أخفت قلقها حين ضحكت وقالت:

ـ لقد وصلنا، ونحن لن نفعل إلا أن نغير البطاقة لتكتب فيها (بالمعاش) بدلا من الوظيفة السابقة.. هل معك كل الأوراق؟

ضحكت وأنا أقول طبعا.. وأبرزت كل الحافظة بما فيها من صور لكل الأوراق المطلوبة الى جوار الأوراق الأصلية، وربت بيدى على الحافظة وأنا أقول:

ـ هذا اليوم جديد فى عمرى.

ثم وقفنا فى الطابور، أنا فى الصف وزوجتى الى جوارى، الموظفة القديمة فى دنيا تحقيق الشخصية والجوازات، وكل مشاكل الداخلية.. قضت عمرها كله معهم.. واقتربنا تدريجيا من الموظف المختص.. لم يكن الإجراء شاذا أو غريبا.. مجرد تغيير بيانات..

لست أدرى كيف حدث هذا.. مع كل خطوة أخطوها فى الطابور كنت أحس أن شيئا ما يحط فوق كاهلى.. وأنحنى. أعنى أن قامتى تنحنى.. وبدأت أحس أن ساقى تهتزان فى عنف، وأكاد أن أمد يدى أمسكهما بها، حتى لا يلحظ أحد أننى أهتز فى وقفتى..

ولمست ذراعى فانتبهت ولكنى لم أملك أن أمنع يدى حين ربت بها على يدها فوق ذراعى أن ترتعش نعم كانت يدى كلها ترتعش، وكان كفى يختلج بعنف فوق ذراعيها..

وبدت فى عينها نظرة ذعر، وضغطت على كفى، وهى تقول

ـ مالك..؟

وحاولت أن أبتسم فشحب وجهى واصفر، وحاولت أن أطمئنها بكلمات فتلعثمت الكلمات فى فمى وامتلأ باللعاب وخرجت الكلمات متقلصة عجوزة هتماء..

ـ أبدا.. لا شىء..

وبدأ فى عينها ذعر حقيقى، وأحسست تحت وطأة نظرتها أننى أتمزق، ينفلت كل جزء منى بعيداً عن كل جزء .. أننى أتهاوى، ليسقط كل جزء منى بعيدا عن كل جزء..

وقال الرجل:

ـ أوراقك يا بيك..

وأفقت لكلماته، ومددت يدى بالأوراق، وكانت يدى ترتعش.. ونظر إلىّ وكانت عيناى غائمتين والنظارة تتهدل فوق أنفى، والعرق يملأ جسمى ووجهى ورقبتى وكنت أهتز فى وقفتى وكانت ركبتاى تتقلصان فى عنف، ترفضان الحركة والمشى.. والاستمرار.

وقال الرجل في إشفاق:

- اجلس يا والدى هنا، هذا كرسى ليس قد المقام، ولكن تفضل استرح حتى أنهى أمر الأوراق، وتنهدت وأنا أحس بالراحة حين أزيح عبء جسدى عن قدمى فأجلس، وأعود بظهرى إلى الوراء، وأمد يدى بمنديلى أمسح عرقى المنداح من جبهتى وفوق عينى.. ونظر الرجل إلى الأوراق أمامه، ثم نظر إلى، ثم نظر إليها، وعاد يقلب الأوراق من جديد، ثم قال في صوت متثاقل معتذر عطوف:

-- هل البك مريض؟

ولم أرد عليه بدأت آلام حادة تمزق رقبتى وبدأ تنفسى يتعثر، وقلبى يضرب خفقاته فى عنف غريب وقالت هى:

- أزمة وتعبر.. والله ستار.

قال الرجل وهو يقلب الأوراق من جديد بين يديه:

- كنت أظنه بلغ سن المعاش، ولكن مد الله فى عمره، ومازال أمامه سنوات طويلة حتى سن المعاش.

قالت:

- لهذا هو يخرج الى المعاش، هو مريض..

كان صوتها هامسا، وكأنها تدلى إليه بسر خطير.. ولم أستطع أن أتحرك من مكانى، كما لم أعد أرى فقد غامت عيناى تماما، وتيبست

ساقای، وازداد اهتزاز كتفى ويدى وأصابعى كلها. ومددت يدا تمسك يدا حتى لا يزداد اهتزاز كل شىء فى.. وقال:

- يا بيك استرح.. فأنت من الواضح مريض..

تحركت شفتاى، واهتزتا.. ولم يصدر عنهما أى صوت.

وانحنت علىّ كأنها تسمع ما أقول.. وصمت الرجل يتتبع بعينيه همسات شفتى، وقلت وسط الاهتزاز، والتردد، والعجز:

- أنا أستطيع أن أوقع..

واهتز كل شىء، الرجل، والاستمارة، امرأتى من جديد والاستمارة، يدى المرتجفة والعرق والتردد والخوف والاستمارة..

ووقعت.. واستقر حولى كل شىء..

وقالت مرة أخرى:

- وقع هنا وينتهى الأمر.

ووقعت، وفى عين الرجل رثاء، وفى كل جسمى اهتزاز، وهى ترفعنى من مجلسى لأقف وتقول:

- ماذا جرى لك؟

ولا أجيب..

وتعود وتقول:

- أسند نفسك على..

وابتسمت لنفسي في سخرية.. كيف أسند جسدي عليها، وهي ضعيفة مسكينة لا تستطيع أن تسند جسدها هي.. وقلت:

- تمام.. أنا أستطيع أن أقف..

ولكن كانت مهمة أن أقف مسألة صعبة بالفعل فكل شيء فيّ يهتز.. وعجبت لنفسي، فأنا لا أستطيع أن أمنع يدي أن تهتز ولا ذراعي أن يهتز، ولا ساقي أن يهتز.. كان كل شيء فيّ يهتز.وهذا عجب العجب.. وقال الرجل:

- لا بأس يا بيك، معك البطاقة وكل شيء تمام.. وأنت أسعدتنا بزيارتك، ونراك على خير..

وتحاملت، ووقفت، ومدت يدها تسندني، وسرنا أنا ألقي بكل ثقلي عليها، وهي تحتمل وتبتسم إلى أن وصلنا إلى الطريق ، وقالت:

- ما معنى كل هذا.؟

اعتدلت وقلت:

- أبدا، لا شيء، هات يدك أستند عليها حتى نصل.

قالت في عنف:

- لست محتاجا إلى يدي، وأنت أقوى مني، من كل شيء.

قلت في ضعف:

ـ كل شيء فيّ يتهاوى، لا بأس فاسنديني إلى البيت.. فأنا لا أقوى على السير..

ابتسمت وقالت:

ـ تركنا هذه الإدارة وأصبحت حرا، البطاقة معك وقد تغير بها كل شيء، فماذا تريد..؟ كانت كلماتي متلعثمة وأنا أقول لها..

ـ لا شيء.. فقط أريد أن أروح إلى البيت..

وابتسمت، وقال الرجل، يا سلام، البيك تعبان وأنا أوصله إلى التاكسي.. وهمست شابة، يا حرام وجهه محمر.. وقال شاب: البيك تعبان اسرعوا إلى سيارتي.. وقال الرجل: فعلت كل ما أستطيع: والبطاقة تمام.. وقالت امرأتي: شكرا لك، سنصل إلى البيت بإذن الله هي إغماءةعارضة.. وقال الشاب: عربتي تحت أمركم، فالبيك تعبان تمام.. وقالت زوجتي: شكرا، سنصل بسلام.. وتهاويت.. وأسرع أكثر من رجل وأكثر من فتاة يمدون سواعد هم وسواعدهن.. ولكني لم أكن أسمع أو أدري شيئا، فقط، كل شيء، قد ضاع، وأنا ضعت، والبرد يملأ جسدي كله، وليس في رأسي إلا الإخواء يدور ويدور فيجعل من رأسي دائرة مفرغة من كل شيء الا التعاسة وأردت أن أقيء.. وأتمالك فلا يبقى إلا أن أقيء وسط الأغراب والناس والعيابب.. وأتمالك، وأصبر.

وأدركت والتاكسي يسير، وهي إلى جواري أنني مستريح تماما ثم أنام، وأنام.. وتقول:

ـ انتهى كل شيء، ومعك البطاقة الجديدة، والباسبورت الجديد..

ومن عمق النهر العجوز أرفع رأسي وتتداح حول رأسي أمواج وأمواج لزجة مليئة بكل ثقل النيل، وبقايا ألف رجل وألف امرأة أعطوا بقاياهم للنيل العجوز، حبا وذكريات، وقفايات.. وأقول وسط الدوامات:

ـ وإن..

تقول:

ـ الآن استرح.

والباشا والبيك، والسعادات، والبكاوات، والصافنات، والفافقات، والباشقات وقالت:

ـ أنت حر..

وقلت:

ـ وصفحة انطوت..

وفجأة وجدت نفسي أضحك، أولا في خور، ثم في تردد شجاع، ثم في اندفاع مصر.. والتفت السائق إلينا ثم نظر في دهشة وهز كتفيه وعاد ينظر أمامه من جديد.. وعدت أضحك، واعتدلت وضغطت كفا فكف وقلت:

ـ تصوري أنا حر

كانت تنظر إلى في عجب وقالت:

- المفروض أنك مريض، وأنك متهاو، وأنك مت.

كان قلبي يهتز طربا، كأنه عصفور بلله ندى فجر جديد، وقلت:

- نعم مت، ثم بعثت..

ابتسمت، ثم ربتت على يدى وقالت:

- من يصدق .. من كان يراك وكل الأيدى تساندك، وكل السواعد تكاد تحملك من دقائق فقط..

قلت وأنا أنظر من نافذة السيارة:

- الشمس مشرقة، والعيال تخرج من المدرسة حاملة حقائبها فرحة، تجرى .. تجرى.. وعدت أضحك.. وعاد السائق ينظر إلينا في دهشة، ثم يحول وجهه إلى أمام فى أدب، وقالت:

- وإذن انتهت الأزمة.

قلت:

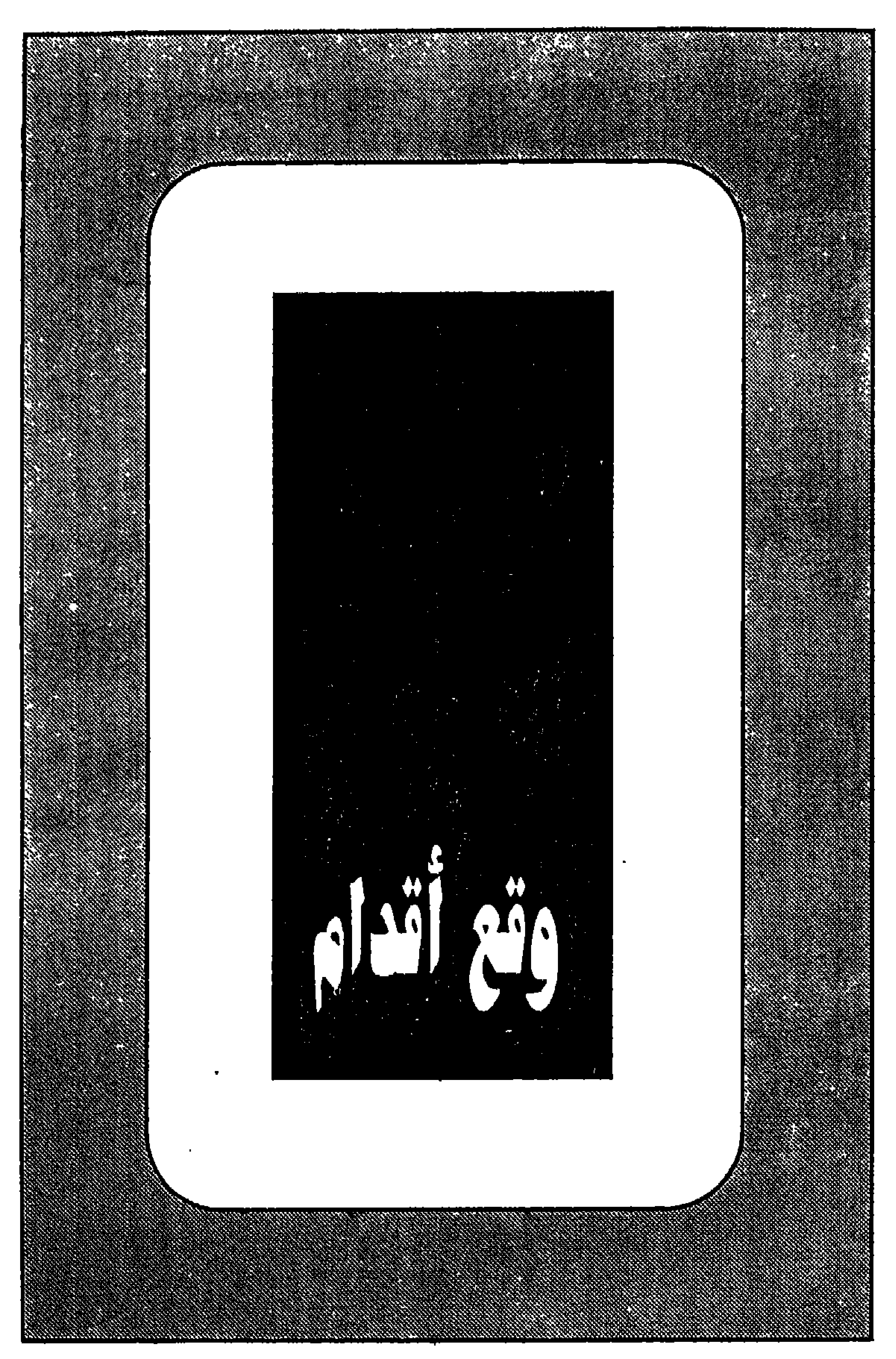
- أى أزمة .. أنا أفكر فى أن نذهب معا غدا إلى الهرم.

ضحكت بدورها، وقالت متسائلة وقد صغرت عشرات السنين.

- غدا، غدا

قلت وأنا أمسك بيدها بكل ما في قلبي من خفق وحنان وأمل

- نعم غدا يوم جديد.


وقع أقدام





لم يحدث من قبل أن حموده خلف ميعاده .. فبعد أوان العشاء بقليل يقف عند المنحنى ويهمس:

ـ أنا هنا يا ابنة الحلال.

ويخفق قلبها له قبل أن تسمع كلماته، (تدغمس) اللمبة الجاز قليلا، ثم تنظر حولها لتتأكد أن كل شيء في الحجرة مسوى ومنتظم، ثم تهرع لتقف عند شباكها الصغير وتهمس:

ـ أنا هنا يا ابن الحلال

ويتنحنح حموده في قلق ويقول:

ـ وأبوك؟

فتهمس في ضجر:

ـ يصلي العشاء، عاد بالعربة المحملة بالجوافة قبل الغروب، وصلى المغرب هنا، ثم ذهب يصلي العشاء، ويعود بعد قليل ليشعل

الكلويات فوق العربة، ويسوق عربة الجوافة، المضيئة المنيرة إلى حافة الشارع، لينتظر الرزق الذى يقسمه صاحب الأرزاق.

ويقول:

- ننتظره حتى يعود، ويخرج.. فأنا أخاف أن يلمحنى هنا عند المنحنى.

وتقول سنية فى عنف:

- إلى متى هذا الخوف ياسى حموده..؟

وضحكت فى دلال وعادت تقول:

- اتعرف كلما سمعت فى الراديو أغنية (حموده فايت يا بنت الجيران) أحس بالخجل، وأتلفت حولى خوفا أن يحس أحد أن النار تشتعل فى وجهى.

همس فى انفعال:

- سلامة وجهك من النار يا ست سنية، أتعرفين أنا حين أسمع هذه الأغنية أقول لنفسى (سنية فى الشباك يا ابن الجيران).

همست سنية وصوتها يهتز فى انفعال صادق:

- سلمت كلماتك يا ابن الحلال

قال حموده الذى لم يخلف ميعاده أبدا

- وسلمت لى يا بنت الحلال.

ثم صمت وهو يقول:

ـ صوت أقدام أبيك عائد من أول الحارة.

وكانت الحارة مظلمة لا ضوء فيها الا شعاعات قليلة تبص من لمبات غاز مضاءة فى بعض النوافذ والصمت يسود. ووجف قلبها ودق فى ارتياب وخوف وهى تقول فى صوت مرتجف:

ـ من قال إنه أبى، ربما كان هو..

همس حموده وقد انتقل خوفها اليه فهز كلماته:

ـ من هو؟

قالت:

ـ هس..

ومضت تتسمع فى إصغاء شديد وترقب، ووقع الأقدام ظهر جليا ومضى يقترب. وقالت فى خوف متزايد:

ـ لا، إنه هو، الشبح الذى يأتى كل ليلة، يسير من أول الحارة، ثم ينحنى عند المنعطف، ويسير، ويسير، وحده وسط الليل يسير، ثم يدخل البيت المهجور، ويصعد السلم سلمة سلمة، أسمعه كل ليلة ويرتجف قلبى وأرتجف كلى، حتى يصل إلى شقته فى الدور الثانى ويفتح الباب، أسمع حركة المفتاح فى (كالون) الباب.. ويدخل، ويسير فى الشقة المهجورة، ثم يشعل شمعة، ألمحها كل ليلة، أراها تتحرك رائحة غادية، حتى يجلس إلى جوار النافذة ويضعها هناك، ويصمت كل صوت،

كأنه يجلس وحده وسط الظلام الا من ضوء الشمعة، ويستمر الصمت، حتى تنطفئ الشمعة ويسود الظلام، وأهرع إلى فراشي أجرى، وأتغطى باللحاف، وأغطى عيني وأذني وأرتجف، وأنا أتصوره هناك وحده وسط الشقة الموحشة مع شمعة تظل تتآكل وتدمع حياتها حتى تموت.. وهو وحده وسط الظلام والصمت الموحش المخيف.

كان حموده يسمع وقد شدته الكلمات، واستغرقت انتباهه، وكان يرتجف مع كلماتها ويتخيل (الشبح) في حركته مع وصفها لكل ما يفعل حتى انتبه مع توقف صوتها، فاهتز جسده فى عنف ورفع رأسه فى حيرة، وقال:

إنه الأستاذ.

صاحت سنية فى عنف يجارى عنفه:

- بل هو الشبح.

وكان وقع الأقدام قد ازداد اقترابا حتى أصبح صاحبه واضحا فى العتمة فهمس حموده فى وجل وحذر:

- بل هو أبوك.

وبالفعل سمعت سنية سعلة أبيها التى تعرفها جيدا، فأسرعت تقول

- أراك بعد أن يخرج بعربة الجوافة.

ولم تنسَ أن تنهى كلامها قائلة:

- تركتك بعافية ياسى حموده.

همس حموده:

- تركتك بعافية يا بنت الحلال.

ثم اختفى شبحه وابتلعه الظلام.. ومضى ينتقل بحذر من باب إلى باب ومن دكان إلى دكان حتى وصل الناصية فانحرف فيها ليختفي تماما عن الحارة وعن عيون أبى سنية وعن عيون سنية، وعن عيون كل الأشباح.. وحتى دخل القهوة وطالعته أنوارها الساطعة وأصواتها المألوفة. الراديو العالى بأغانيه المتكررة، وصرخات الواد بلية: واحد شيشة حمى واثنين شاى ميزه، وواحد قرفة للمعلم جاد وصلحه، وضربات أقشطة الطاولات المتعددة، وصرخات لاعبى الورق، وتهديدا ت المعلم فتيحه التى لا تنتهى لعماله على (النصبة)، ودقات ماسحى الأحذية على صناديقهم الخشبية، ونداءات الباعة، وتوسلات الشحاذين.. حين لفحه كل هذا بحيويته نسى حكاية الأشباح، ونسى رعبه ساعة قالت سنية: إنه الشبح.. فلا شبح هناك إلا بنى آدم وابتسم لنفسه وهويقول: والشبح طلع أبوها.

وجاءه صوت الأسطى عطوه المرح المتوهج حياة وشبابا يقول فى تحد حبيب وأليف:

- عشرة على المشاريب يا سى حموده..

ضحك حموده وقال:

- تمام يا أسطى عطوه، عشرة على المشاريب، وعشرة على العفاريت

صمت الأسطى عطوه، وهو (يفنط) الورق بين أصابعه المدربة، ثم انحنى على المائدة ليهمس فى أذن حموده:

- أنت لا مؤاخذة الليلة ممسوس.

ضحك حموده وقال:

- فرقْ يا عطوه وسأجعلك الليلة أنت الممسوس ورأس الحسين.

....

تنحنح وبسمل وحوقل وتفل وهو يدخل الدار، وقال:

- دستور يا أهل الدار، بسم الله الرحمن الرحيم، السلام عليكم

وضحكت سنية وهى تمسك بيدها (اللمبة) نمرة خمسة تنير عتبة الدار حتى لا يتعثر وهو يخطو داخلا، وقالت فى صوت مرح

- يابا أنت أهل الدار فالدستور دستورك..

مد المعلم أبو دراع يده الوحيدة ليأخذ المصباح منها وهو يقول:

- الدستور واجب يا سنية، فالدستور لعامر المكان بسم الله الرحمن الرحيم جعل الله كلامى خفيفا عليه، والسلام عليه حتى لا يؤذيك ولا يؤذينى.

ومد يده يأخذ منها (اللمبة) وسار أمامها يضىء له ولها الطريق إلى الحجرة الوحيدة فى الدار، ووضع (اللمبة) فى مكانها على القاعدة

المثبتة فوق الجدار، وتلفت حوله ليجد كل شيء في مكانه الأليف اليه فتنهد في ارتياح وهو ويقول:

ـ العشاء يا سنية حتى أخرج إلى الميدان بالعربة، ورزق الله موجود، وهو الرازق في كل حين. قالت سنية وهي تسرع إلى (الطبلية) تضع عليها العيش المقمر والطبق الذي سخنته له حين حان موعد مجيئه:

ـ العشاء جاهز يابا .. ودقية البامية كما تحبها باللحم الضاني، هل أحضر لك طبق الأرز؟

قال المعلم أبو دراع وهو يجلس مرتاحا أمام (الطبلية) ويمد يده إلى العيش الساخن يتحسسه في استمتاع:

ـ بسم الله الرحمن الرحيم، اللهم أدمها نعمة واحفظها من الزوال.. هاتي الأرز يا سنية.

ولم يقصر الرجل في حق العشاء الموضوع أمامه، فقد كان جائعا، الوقفه طوال النهار أمام عربة الجوافة تهد الحيل، وأكواب الشاي المتتالية لا تسد جوعا وإنما هي تزيد الإحساس به، والبيت هادئ ودافئ، والطعام شهي، وزينب زينة البنات وسيدتهن.. مزق الرغيف تمزيقا وهو يكور قطعة في صحن البامية يملؤها بالبامية الشهية باللحم الطري ويدفع الكل في فمه في اشتهاء ورغبة، ويمضغ في استمتاع ولذة، ويبتلع في تؤدة وتأن.. ونظراته مثبتة على (الدقية) لا تتحول

عنها إلا إليها. وكانت سنية ترقبه وهو يأكل، وتستمتع بصدق شهيته لما طبخت من طعام.. كم تحب إقباله على طعامها، وكم تحب تذوقه لهذا الطعام الذى صنعته بيديها ستأكل هى بعد حين، بعد أن يفرغ من طعامه ويشبع تجلس هى إلى (الطبلية) لتتناول عشاءها، أبدا لم تجلس معه منذ ماتت أمها.. كانت هى مكان أمها، تقف على خدمته حتى يفرغ، ثم تأكل ما تبقى من طعامه برضاء كامل وسعادة.. يكفيها أنه اشتهى طعامها وسعد به.. جائزتها الكبرى أن يجهز على أكبر قدر من الطعام، فهذا يعنى أن ما صنعته بيديها يلقى لديه ما كان يلقاه طعام أمها الراحلة التى كانت تصنعه له من إقبال ورغبة.. ومد يده إلى صحن الأرز يجذبه أمامه ورفع رأسه، وقال:

- هل كان أحد يزورنا الليلة يا سنية؟

اضطربت سنية، وتلعثمت، ولم تعرف ماذا تقول، فلاذت بالصمت. ولم يلحظ المعلم أبو دراع وجوم ابنته وصمتها، فاستأنف حديثه قائلا:

- منذ دخلت الحارة وأنا أسمع أقداما ناحية بيتنا، وكنت أنتظر أن أجد ضيفا فى انتظارى هنا، أحد الأصحاب أو الأقارب ، ولا أكتمك الحقيقة يا سنية، ارتحت حين لم أجد أحدا، فأنا أحب دائما أن أخلو إلى عشائى.

وارتفعت ملعقته ملآنة من طبق الأرز ملأ بها فمه، وسكت صوته، وسنية تفكر، وتحتار، وتتمالك نفسها، وتسكت اضطرابها،

وتطمئن نفسها أنه سينسى سؤاله بعد حين ـ ولكنه حين ابتلع الأرز الذى حشا به فمه، عاد يقول:

ـ وأدهشني ـ نعم أدهشنى أننى لم أجد أحدا.. فهل سأل عنى أحد وانصرف؟

لم تكن سنية تحب أن تكذب، ورغم أنه سألها بحيث أتاح لها فرصة الكذب، إلا أنها لم تجد فى نفسها القدرة على الكذب عليه، فظلت فى اطراقتها وصمتها وقلبها يهتز فى قلق.. ثم وجدت مخرجا لكل عذاباتها حين قالت:

ـ سمعت من جديد صوت أقدام الشبح يخترق الحارة إلى هذا البيت الخالى المتهدم الذى لا يسكنه أحد:

كف شدقا المعلم عن الحركة، وسكنت حركة يده الممدوده بالملعقة إلى صحن الأرز وأطرق برأسه، ثم قال:

ـ إذن هو الصوت الذى سمعته.. نعم.. نعم.. هو الشبح.

قالت سنية وهى تتنفس الصعداء:

ـ هل سمعته أنت أيضا؟

لم يجبها، وإنما ظل فى مكانه كأنه لا يجد القدرة على الحركة، ثم وضع الملعقة فى طبق الأرز فأحدثت صوتا حادا وسط الصمت، وابتلع ما فى فمه فى صوت مسموع.. وقال وهو يدفع صحون الطعام من أمامه:

ـ لقد اكتفيت، أو انسدت نفسي، أو لا أجد قابلية للأكل، فقط ارفعي هذه الصحون من أمامي.

ساد الوجوم، ودفع الرجل الصحون من أمامه، ومضت سنية ترفعها في بطء وتثاقل، تعدو بين الصالة والمطبخ تنقل كل شيء في صمت ووجوم.

وعاد الرجل بجسده إلى الوراء ، ثم أخرج علبة السجائر المبططة، يخرج منها سيجارة صغيرة ويشعلها في صمت، وينفث دخانها في سكون، ولا يتكلم.. وامتد دخان سيجارته أمامه حلقات حلقات، قبل أن يستريح جسده، ويتنهد في عمق، ثم يقول قاطعا الصمت الطويل:

ـ لكم سمعت الشبح، يسير عبر الحارة، ثم ينحنى الى الزقاق، ثم يقف، ثم يصعد السلم فى بطء ثم يقف عند الشقة فى الدور الثانى، الدور الثاني تماما.. وتكف قدماه عن الحركة ويسود الصمت.

كانت سنية قد عادت من المطبخ، ووقفت الى محاذاة كتف أبيها، وقالت كأنما تؤكد لنفسها شيئا تريد أن تقتنع به فى أعماقها:

ـ هذا ليس شبحا يا أبى، هذا هو الأستاذ يعود إلى البيت القديم، ويشعل اللمبة، ويظل يكتب حتى الصباح، ولا يؤذى أحدا، ولا يحدث أحدا، وليس هو بشبح، فأنا لا أخافه، بل إنى أنتظر عودته وأرقبها وأحسبها ولا أجد فيها ما يخيف.

نفث المعلم أبو دراع دخان سيجارته فى بطء وهدوء ـ وصمت ـ ثم قال وهو يحرك ذراعه السليمة طالبا منها السكوت:

- أنت لا تعـرفين، هناك شـبح، وهناك شـبح.. الشـبح الذى لا تخافينه شىء، والشبح الحقيقى الذى يخيفنا جميعا شىء آخر.. شىء آخر.. خوف حقيقى آخر.. سأحكى لك فاسمعى..

كان فى لهجته ما دفع سنية إلى أن تنصت فى إصغاء، وقد تسلل خوف ما إلى قلبها، فضمت شالها إلى جسدها، وأقعت إلى جواره وهى تقول:

- من زمن أريد أن أعرف الحكاية، فكلما سألت لا يجيبنى أحد.. فقط إشارات وهمسات وخوف، ولا أحد يريد أن يحكى الحكاية.

جاء صوت المعلم أبو دراع وئيدا حزينا، وهو يقول:

- كان شابا ولا كل شباب الحى هذه الأيام.

قالت:

- ثم.

قال:

- حكاية هذا الولد لا تجـعل فى العـقل ولا القلب مكانا لشىء.. ارفعى باقى صحون الطعام واسمعينى. وأحنت سنية رأسها، ومضت لتستأنف رفع صحون الطعام، والمعلم يشعل سيجارة جديدة وهو يتابعها بنظراته الساهمة.. التى كانت تنظر إلى أمام فى تطلع كأنها تشهد منظراً بعيدا وغريبا وكان فى صوته جرس غريب، جعله مجوفا عميقا وهو يقول :

ـ كلنا كنا نحبه، وكلنا كنا نرقبه فى صمت ـ الأدب الكامل، كان يحب أمه وأخوته، وكان كل شيء فى حياة أمه وأخوته ـ وكنا نحب أباه ـ الرجل الطيب الذى يلتقط رزقه فى (بين الصورين) وكيلا يكتب كلمات فوق ورق، و(مشهلاتى) يحمل ورقا إلى مكان، لينجز شيئا فى مكان آخر، و(عتالا) يحمل ما يطلبه صاحب العمل من بضائع من مكان إلى مكان. ولكن (عبدالعزيز) كان عندنا محترما ـ فى ابتسامته الشاحبة، وجهه المعروق، وجلده الغريب فى حمل أعباء عمله الردىء، فى صمت وسكون ورضاء كامل ـ كيف كان يمكن لهذا الرجل أن يعول هذه الأسرة المستورة، لا أحد منا كان يعرف، ولكنه كان دؤبا وصامتا وحازما وضاحكا فى آن واحد.. وكان يمضى فى إصرار وصمت وكانت هذه العائلة تعيش فى ستر ورضاء، وكنا نجل وجودها ونحترمه فى اعتزاز وتقبل.

قالت سنية: .

ـ موعد خروجك حان، فلا داعى لكل هذه الذكريات.

فتنهد المعلم أبو دراع ، ورفع رأسه وكأنه يخرجها من جب عميق وقال:

هذا الولد فى عز اكتماله مات.

قالت سنية، وهى تعدل وضع (اللمبة) بعد أن نظفت (الطبلية) من الطعام:

ـ أجله يا بابا.

ثم انزلقت من أمامه، تحمل الأوانى فى صمت وهدوء. وتنهد المعلم أبو دراع، وأخذ يعبث بملابسه وهو يقول:

- العمر الطويل لك يا سنية - هذا الولد لم يحتمل، فمات

فوقفت سنية عن الحركة، والتفتت إلى أبيها وهى تقول:

- كيف مات؟

همس المعلم أبو دراع:

- الله ستار على عبيده،مات والسلام.

أصرت سنية وبدا فى صوتها حزم غريب وهى تسأل:

- لا يا با - كيف مات؟ هذا دائما هو السؤال.

نهض المعلم أبو دراع من جلسته، وعدل ثيابه والتفت يمينا ويسارا وهو يقول:

- دستور يا سيادى - هذا حكم الله، ولا اعتراض.. أبدا لا اعتراض.

قالت سنية

- وكل ليلة أتابع شبحه وهو يدخل الحارة، وهو يسير فى الحارة وهو يتجه إلى الدار، وهو يصعد السلالم.

صاح المعلم أبو دراع:

ـ دستور .. دستور.. كفى يا سنية كفى.. حين ترين هذا أدخلى بسرعة ورددى باسم الله، واستعيذى من الشيطان.

قالت سنية:

ـ وهل هو شيطان؟

وقف المعلم أبو دراع.. وتمالك نفسه وقال:

ـ الشيطان لبسه ذات يوم فقفز من النافذة إلى بلاط الحارة وتحطم جسده، وصمت واجما ثم تنهد وقال:

ـ أخرج إلى الميدان بالعربة الآن فاذهبى واشعلى الكلوبات.

قالت سنية فى اصرار:

ـ ركبه الشيطان ومات، والشيطان فى داخله.

بسمل المعلم أبو دراع وحوقل، ثم قال فى خفوت:

ـ علم الناس عند الله، واتركى الخلق للخالق.

وذهبت سنية فى صمت إلى الكلوبين، ترفع (الراتينه) وتشعل كل واحدة حتى تتوهج ثم تغلق الساتر الزجاجى، وتحمل واحدة إلى مقدم العربة، والثانية إلى مؤخرتها، وتعود إلى أبيها لتقول فى هدوء:

ـ الكلوبات اشتعلت، والعربة جاهزة.

وكان المعلم أبو دراع فى كل هذا الوقت قد أنهى هندمة الجلباب الأبيض الطويل، وعدل اللاسة واستعد للخروج، فقال:

- تركتك بعافية، ولا تتركى لشىء أن يزعجك، أنت تحفظين الصمدية، اقرئيها عندما يظهر لك شبح من هذه الأشباح.

ضحكت سنية وقالت فى عنف وهى تهز رأسها:

- أى أشباح يابا ليس هناك أشباح.

قال المعلم وهو يسوق العربة أمامه بيده الواحدة:

- الله ستار يا سنية وعلم كل الأشياء عند الله.

ثم فتحت سنية الباب ليخرج المعلم أبو دراع بعربته، والكلوبات تضىء ثمار الجوافة اللامعة المرصوصة فوق العربة بعناية وحرص، وهمست وهو يبتعد عنها:

- فى رعاية الله يابا..

ثم وقفت تمسك رتاج الباب حتى انحرفت العربة بحملها عند الناصية، واختفت أنوارها عن ناظريها ، فردت الباب فى رفق، أعادت الرتاج إلى مكانه ثم مضت تكوم الصحون لغسلها. وبالها مشغول بحديث أبيها الأخير. وفجأة سمعت الصوت ،صوت أقدام تضرب أرض الحارة فى ثقة، وتتقدم خطوة خطوة إلى إمام ووجف قلبها، وأحست بالرعب. فتركت الصحون أمامها وتجمدت.

الأقدام تمضى فى بطء وثبات، خطوة خطوة، من أول الحارة حتى حاذتها، وكاد قلبها أن يتوقف، ولكن الخطوات تعدتها ومضت تسير من جديد، خطوة خطوة حتى ابتعدت عنها تدريجيا وهى تحس

بها كأنها تسير فوق رأسها، فوق قلبها، فوق أنفاسها.. ثم انفرج صوت الأقدام عند ناصية الحارة الداخلية ومضت مبتعدة مقتربة نحو باب البيت المقابل الذى يقع بابه فى الحارة الأخرى - وظل صاحبها يتقدم ويتقدم حتى حاذى الباب.. هو فى حذائها تماما من الناحية الأخرى - ثم صمت الصوت، وكاد قلبها يكف عن الخفقان. وتوقف كل شىء للحظات، ومات الصوت، ومات قلبها.. ثم عادت الأقدام تتحرك من جديد صاعدة هذه المرة، هذا السلم المهجور، سلم البيت المهجور.

إلى أين سيصعد، إلى الطابق الثانى، ويستقر، هذا رجل حى، تعرف أنه يجىء هنا ليكتب، بعد لحظات يصمت كل شىء إلا صوت الموسيقى، ولا خوف.. ، أما الصوت فيعود، تصعد الأقدام إلى الطابق الثالث، الصوت يعلو بخطواته ويستمر.. هذا شىء آخر.. إنه.. الشبح..

ولكن الصوت، صوت الأقدام كف عندالطابق الثانى. وسكت قلبها معه.. هل يدخل الشقة الخالية، هل يملؤها حياة، هل ينبعث صوت الموسيقى هل يكتب ويكتب حتى ينام كل شىء.. أم.. ولكن صوت الموسيقى جاء.

وهدأت نفسها واستقرت، هذا ليس الشبح، هذا هو الشبح الآخر الذى يجىء هنا إلى البيت المهجور، إلى مكانه القديم، إلى الدور الثانى، حيث يسمع الموسيقى وحده، ويكتب وحده..

وجاءتها أنغام خافتة بعيدة هادئة - وتحركت سنية، وتنهدت، ومضت إلى المطبخ وحين انتهت من غسل الصحون، وتنشيفها، حملتها

كلها إلى الدولاب ترصها فى حرص وحذر، وقد هدهدت الموسيقى من خوفها وقلقها ـ وقالت سنية لنفسها:

ـ مم تخافين يا بنت.. هذا إنسان يعيش فى دنيا قديمة.. ولكنه إنسان وحى. يحيط نفسه الموتى. . هو حر ـ مالنا وماله ـ

ـ وكادت تغنى حين انتهت من عملها .. لولا أنها سمعت صوت الأقدام من جديد ـ من أول الحارة هذه المرة .. لاشك.. هذا هو الشبح.. الموسيقى تأتى من الدور الثانى لا تقف ولا تتوقف، ووقع الأقدام من أول الحارة ثابت وقوى، يرج الحارة رجا، يرجها هى رجا، كل شيء فيها يرج ـ فالأقدام تقترب، وتقترب ـ ثم تتوقف عند بابها تماما، تتوقف وتوقف وجيب قلبها. وفجأة سمعت صوتا حبيا يقول:

ـ هل أنت صاحية يا بنت الحلال؟

وكادت تصرخ، كادت تبكى.. فجأة اندفعت نحو الباب، ترفع متاريسه وتفتح ضلفتيه وهى تقول:

ـ حموده .. ادخل يا حموده.

وفوجئ حموده بهذه الدعوة الغريبة التى لم يتوقعها من قبل، فوقف امام الباب مرتجفا حذرا وهمس:

ـ ما هذا يا بنت الحلال

قالت وهى تشده من ذراعه ليدخل من الباب ، ثم تغلق الباب فى عنف وتدفع المتاريس الداخلية دون وعى، وهى تضحك وتبكى وتمسك يديه فى عنف وتقول:

- ادخل يا حموده .. ادخل ..

وفجأة وجد حموده نفسه فى دنيا من الأذرع والأنفاس والقبل .. ولم يعرف حموده إلا أنها بين يديه وأنه يضمها، وأنه يقبلها، وأن أنفاسها متلاحقة، ومخيفة وسريعة، ولملم نفسه وهو يقول فى حيرة:

- ما هذا يا بنت الحلال؟

استكانت على صدره - هدأت، واعتدلت أنفاسها، وهمست

- الشبح يا حموده، الشبح.

وازدادت دخولا فيه، ومد يده يحتويها، فاهتز جسدها بين يديه، وثارت فيه كل كوامن الرغبة وتصاعدت روائح عبقة من شعرها، فربت على رأسها، وقال فى تحرج:

- يا بنت الحلال، ليس هناك شبح.

قالت وهى ترتجف بين ذراعيه:

- سمعته، يدخل الحارة، يدور حول المنعطف، يصعد السلالم، يدير الموسيقى؛ ألا تسمعها ..؟

وكانت الموسيقى الخافتة تصل إلى أذنيه وهو يضم جسدها الى صدره، وعطرها يملأ أنفاسه، ولكنه كان يحاول أن يتماسك وهو يقول:

- ليس فى هذا خطر، انه يحب ما عاشه فهو يعود إليه بين الحين والحين، وليس هو شبحا بل هو إنسان يحس بالغربة فى عالمه، فيلجأ إلى الغربة فى دنياه القديمة، ولن يجد سلام نفسه ابدا.

ودخلت سنية فى جسد حمودة فى عنف، كأنها تريد أن تخترق الجسد ليحتويها - وأحس حموده أنه يحمل فوق أذرع مجهولة إلى عالم مجهول، ومد يديه يريد أن يبعدها عنه، فجأة ارتفع الصوت من جديد..

وقع أقدام.. وتشبثت به سنية وهى تقول:

- أسمعت، هذا هو الشبح.

وأخذ حموده يربت على جسدها لتهدأ، فإذا هو يثور، كل جزء يمسه من جسدها يبعث رسالة مخيفة صاخبة إلى كل جزء من وجوده وكيانه ، وهمست وهى فيه كلها:

- اسمع ..هو يتقدم إلى داخل الحارة - كالمعتاد كل ليلة يريد بيته القديم، وهو يدور..

كان الصوت قد وصل إلى حافة البيت، ثم أخذ يتحرك إلى امام، ثم يدور، ويتجه إلى مدخل البيت بعد المنعطف، واهتزت بين ساعديه، وتفتحت وقالت:

- أبعده عنى..

ثم صاحت فى رعب ورغبة:

- اقترب منى، التصق بى، خذنى كلى.. حموده، امسك يدى، حموده..

وقال حموده:

- ضعنا يا بنت الحلال.

ومن بعيد جاءت وقع أقدام وهزة عربة تتحرك فوق بلاط الحارة، تتحرك فى رتابة واستمرار، نحو البيت.. وهمست سنية:

- ماذا نفعل يا ابن الحلال؟

همس حموده وهو يلهث، وقال:

- نقول له الحقيقة..

همست سنية:

غدا نتزوج.

همس:

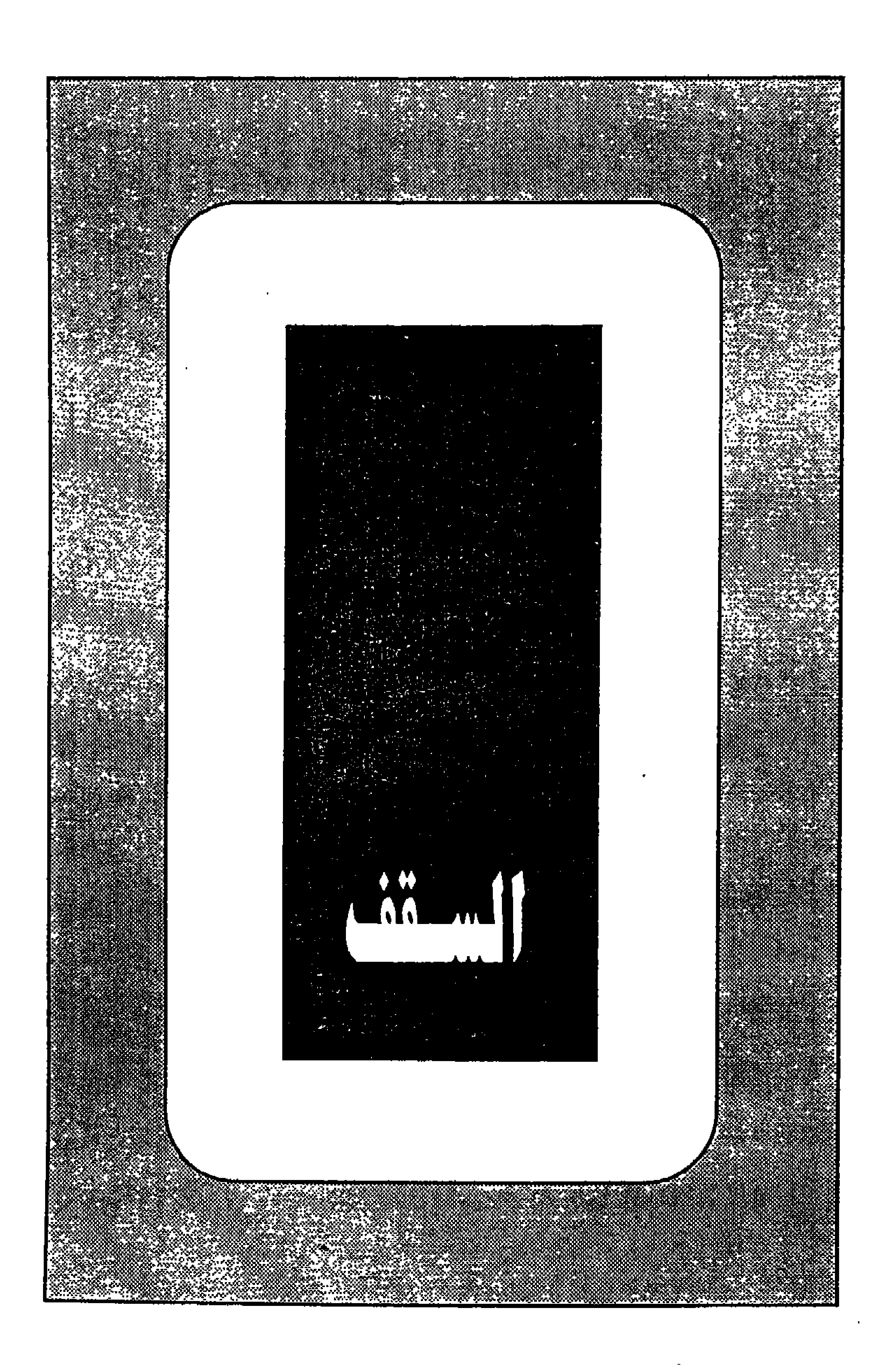
- أضاعنا، وأحيانا وقع أقدام.

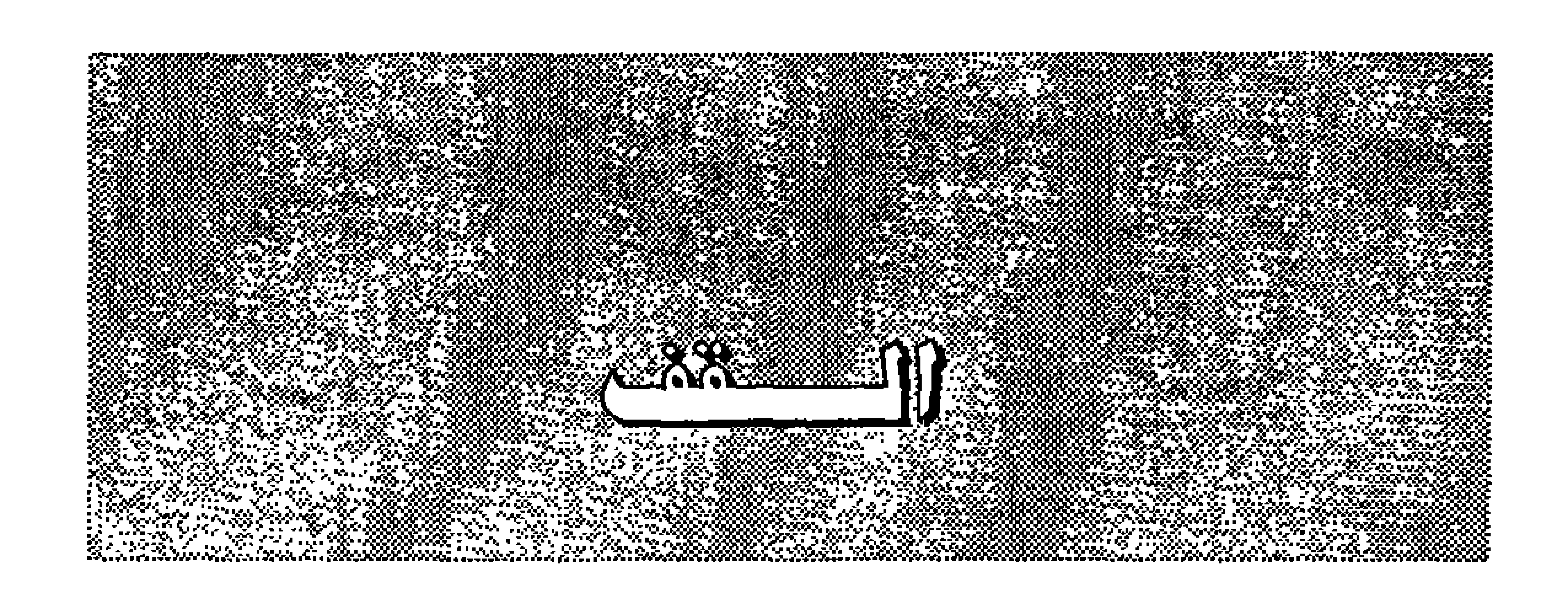
ودست وجهها فى صدره، ووقع أقدام المعلم أبو دراع تقترب وقعقعات العربة واضحة فى الحارة وفجأة غطى عليها وقع أقدام يعرفانها جيدا وهمست:

- يعود

قال:

- بل نحن نعود.. وغدا فى هذه الحارة نصبح وقع اقدام.


السقف



ليس يدرى أحد كيف بدأ هذا.. ولكنه حدث وانتهى الأمر، ولم يعد أحد يستطيع أن يتجاهله أو ينكره، فقد غدا حقيقة واقعة تزداد رسوخا ساعة بعد ساعة.. يوما بعد يوم..

نقطة وراء نقطة، والسقف يرسل نقط الماء ليتساقط الملاط ولتقع النقط فوق البلاط، وترتسم فوق بلاط السقف، حيوانات، ووحوش، وأشكال غريبة متداخلة.. والبلاط تبدو فيه بقعة مصفرة، ثم تحوطها بقعة داكنة، ثم تحوط الرقعة الداكنة رقعة أخرى لا لون لها.. والنقط يوما بعد يوم تحفر فى البقعة الأولى حفرا فتغور وترسب فيها الماء، والنقط تنزل فوقه ويهتز ثم يسكن، ثم يهتز ثم يسكن، ثم يهتز ثم يسكن من جديد.

وكان كل ما أستطيعه هو أن أبعد السرير عن هذه النقط المتساقطة وأقبع فوقه لأرقبها فى صبر وصمت، لأسمع صوت النقط المتساقطة كأنها تحفر فى عقلى كتلك التى تحفرها فوق البلاط وكأنها تكون فى عقلى دوائر وأشكالا كتلك التى تكونها فوق بلاط السقف من فوقى..

وكنت جائعا .. جائعا جدا، جائعا، كما لم أعرف الجوع من قبل.. منذ الأمس انتهت الكسرات الجافة، فقضمتها بلا شيء إلا الماء من الصنبور. ثم لاشيء.. اضطررت إلى غسل الكسرات الباقيات بماء الصنبور حتى أزيل عنها آثار الصراصير والجفاف، والعفن، ولكنى أكلتها كأشهى ما يمكن أن يأكل إنسان.. ثم نمت.. نمت نوما عميقا لا حلم فيه.. وحين فتحت عينى لم أر إلا الماء المتساقط، وهذه الرسوم الغريبة فى السقف، وهذه الدوائر الملونة فوق البلاط.

وهتف هاتف غريب بى، أن أركل الملاءة المهترئة، وأقفز إلى خارج الحجرة إلى خارج الشقة، إلى خارج هذا البيت العتيق، إلى حيث الهواء والصيحات والناس، وصليل الترام، وأبواق العربات ونداءات الباعة، وبكاء الأطفال وأرداف النساء تهتز، وكلاب الحى تعوى، إلى حيث الوجود والحياة والناس...

ومددت يدى، أجر الملاءة فوق رأسى، وأغمض عينى ثم أنام من جديد، فى صمت غريب مبهم، أنام من جديد..

كان حلوا ألا أرى نور النهار، وألا أخرج من هذه الحجرة المظلمة، وألا أسعى مع الناس وراء الناس، حتى لا يصدمنى مرفق أحد الناس، أو يقذف سباب واحد آخر من الناس، كل الضيق والغل إلى صدرى ووجودى عند الصباح.. نعم.. كان حلوا أن أنام فى الحجرة الرطبة المظلمة، يتساقط مطر غريب فوق بلاطها وأنام، ويحفر فيها ماء متسرب من سقفها أشكالا، وأنام..

أبداً لست أحب شيئاً فى الوجود، قدر أن يتركنى الوجود فى مكانى هذا الأجوف، أنام فابتعد عنه ويبتعد عنى، ويحل السلام بقلبى رغم الجوع، فأنام.. وطرق الباب، وغطيت رأسى بالملاءة المهترئة فتعرت قد ماى، وعاد الباب يطرق، وتقلبت فى مكانى، حريصاً على ألا أحدث حركة تكشف أننى موجود.. وطرق الباب..

وأغمضت عينى فى عنف، وتجاهلت أذناى وقع النقاط من السقف، نقطة وراء نقطة.. وطرق الباب.. ووضعت يدى على فمى حتى أحبس أنفاسى فلا يسمعها أحد، حتى ولا ذلك الطارق الملح على الباب.. وطرق الباب، مرة ومرة ومرة، وكأن الطارق لا يريد أن يصدق أننى غير موجود، أو يريد أن يكسر الباب ويدخل والسلام..

ممن أهرب؟ أنا تماماً لا أعرف، ولكننى أخاف طرق الباب، كأنه يهز دقات قلبى نفسها فيختلف وقعها ويتغير إيقاعها، وتضطرب وتهتز، معها تضطرب أنفاسى وتهتز ثم ينثال العرق بارداً متفصداً من جبينى، وبين عينى، وفوق عينى، وتصبح أنفاسى شيئاً صعباً، ضاغطاً فوق قلبى وصدرى ووجودى كله، وأحس أننى سأموت، بل أننى أموت وأختنق، أموت وأختنق..

وعاد الباب يطرق من جديد، وعدت أضع المخدة فوق رأسى من جديد أيضاً.. وعادت طرقات نقاط الماء تسقط فوق نافوخى تماماً، نقطة نقطة فى رتابة وإصرار وعنف..

ولم أستطع أن أواصل النوم.. هذا عبث لا جدوى منه أبداً فمن كان يظن أن هذا يحدث، وأن ينشق السقف عن هذه النقط الرتيبة اللعينة التعسة الدائمة الوقع، الدائمة الإصرار والوجود العنيد..

وفتحت عيني في حذر.. وعاد الطرق بعنف، وأغلقت عيني وأذني، وحاولت أن أنام.. ربما. ربما نمت..

لم يكن هناك شيء واضح أبداً، كان ذهني مشوشاً، مجموعة من الصور الغريبة والرؤى العفوية ونقاط من السقف وطرق على الباب، أشياء هلامية تمر برأسي ولا تستقر.. ولكنني أحس أنه لابد أن أرى الطارق، أن أفتح الباب، أن أعرف من هذا الذي يصر في عنف على دق مسامير في رأسي وعقلي ووجودي كله، كأنه يدفع بقبضته لتخترق جمجمتي وتنفذ إلى مخي وتدهسه في عنف وقسوة..

ودق الباب.. دق الباب.. دق الباب..

ومن السقف نقطة وراء نقطة ويتساقط الملاط. ملاط السقف. فوق البلاط، وتزداد الفجوة سواداً، دوامة صغيرة، ثم حفرة، ثم بياض..

وقمت.. كان لابد أن أقوم..

كل شيء يمزق سكوني، كل شيء يمزق قدمي، كل شيء يمزق رأسي.. وقمت.. كان لابد أن أقوم...

وحين وقفت كان صدري عارياً وساقاي وقدماي.. كل شيء كان عارياً تماماً.. وتلفت حولي ولم أجد شيئاً يسترني.. لا شيء، يستر

أبداً.. لست أدرى أين وضعت القميص، ولا بنطلون البيجاما ولا الخف.. لا شيء.. لا شيء..

وكل شيء بارد.. وأنا أرتجف.. والطرق من جديد، وقطرات الماء تنزل من السقف.. والماء يتكون عند البلاط، وأنا أرتجف وقد ضممت ذراعى إلى صدرى، وكل جسدى يرتجف، ودق الباب من جديد.. ونزلت قطرات من السقف، ورفعت رأسى أنظر إلى السقف وكأنى لم أره من قبل.. دوائر ودوائر ومستطيلات ومربعات ومخمسات، ثم أشكال تدور فى فلك غريب، لو وضعت يداً هنا، وساعداً هناك، لكان أمامك عالم كامل من الأشكال والحيوانات والتعاسات والسقطات..

ودق الباب من جديد.. وأخذت أمد قدمى بحثاً عن الملاءة هناك.. ثم بحثاً عن الخف، ولا خف هناك.. الشيء الذى ضايقنى أن البلاط بارد، وأن قدمى لا تستطيعان الصمود أمام برد البلاط.. وجسدى كله يهتز، فالبرد غريب، من كل مكان يجيء، وأحسست أننى سأموت برداً إن لم أفعل شيئاً، وعدت أضم ساعدى إلى صدرى وأرتجف فى صمت.. ثم أخذت أتوجه إلى الباب، الباب كان هنا.. فعلاً.. على بعد خطوات من الحجرة، ولكن الحجرة طويلة، طويلة وأنا أسير ولا تنتهى.. أسير وأسير.. والطرق يشتد، وأنا أسير، كدت أصيح:

أنا قادم، ولكنى لم أتكلم.. ثم لم أتحرك، ثم لم أتنفس، كان الطرق عالياً ورهيباً وضخماً، وكأنه صاعقة من بعيد تطرق كل وجودى بصرخاتها العالية.. ومن قريب كان السقف ينقط قطراته العجيبة والدائرة السوداء تتسع فى إطراد.. فى إطراد..

وصرخت، عل أحداً يسمعني.. صرخت بأعلى صوتي، بكل ما عندي من قوة وصوت.. صرخت، وصرخت.. ولم أسمع إلا الصمت.. لم يسمعني الطارق عند الباب، ولم يسمعني من في الطابق الأعلى، يتركون الماء يندفع ليغرق سطح غرفتي بالماء.. لم يسمعني أحد، فقد صرخت، وصرخت، فقط لم يسمع أحد صوتي إلا أنا.. وعدت أصرخ من جديد..

والطرق عند الباب يشتد، وأنا اتعثر وأقع، أتعثر وأقع.. وأتحامل من جديد، لأقف ولأسمع صوت الطرق العنيد..

من يسأل عني؟ لا أحد. من يطرق بابي، كيف أعرف؟.. لعله الزبال يريد أجرته، لعله قارئ عداد النور، يريد أن ينفذ إلى العداد، عبر رأسي، وعبر جسدي المتعب، وعبر استيقاظي المؤرق التعس.. لعله البواب يريد إيجار الشهر، أو ثمن الماء المستهلك عند الآخرين فلست أذكر أنني أصنع من الماء شيئا سوى أن أغسل وجهي، ولكن الشقة التي هي فوق، تترك الماء ينساب وينشع، وتترك الماء يتساقط ويخترق السقف وينهمر فوقي.. ويريد مني أن أدفع ثمن هذا الماء الذي يدمر وحدتي بوقعه من خلال السقف الذي ينشع، ومن خلال نقاطه المتساقطة في رتابة تقتل حتى معنى النوم والأمان، وتقتل حتى معنى السأم..

ولكن لعله صديق أو قريب، أو لعلها امرأة.. وتعثرت في مقعد في غير موضعه، وسقطت وحاولت أن أقف من جديد، فتحاملت ومددت يدي إلى كل شيء حولي أتساند، حتى أقف، وما أن انتصبت في

مكانى حتى أحسست بالثورة تملأ كيانى كله.. أيا كان هذا الطارق فهو ليس بإنسان.. فماذا يريد إلا أن يقتحم وجودى، ويهزمه.

ودق الباب من جديد، وتعثرت من جديد، وسقطت وأحسست بجبهتى ترتطم بجسم صلب ودارت الدنيا بى، وكدت أضيع.. بل أنا ضعت، سقطت فجأة فارتطم أنفى بشىء صلب، وكدت أصيح من الألم، وأحسست أن شيئاً قد تمزق وتحطم، وحين رفعت يدى أتحسس أنفى، لم يكن أنفى فى مكانه.. صرخ شىء فى داخلى ألما، وامتلأ وجهى لزوجة، ومددت يدى إلى وجهى وعادت ملوثة بسائل قان، بدم.. دم أنفى اصطدم بشىء ما فتحطم.. وامتلأت عينى بدموع غزيرة ولم أكن أعرف ماذا أفعل.. هل أتمخط، أم هل أمسح وجهى من الدم أم أمسح عينى من الدموع والطرق ملح، ومستمر.. وأنا فقدت قدرتى على الحركة ولم أعد قادراً على المعرفة، فقدرتى على المعرفة والإدراك قد ضاعت لحظة تركت مكانى فوق سريرى التعس، ولحظة وقعت الملاءة المهترئة من فوق جسدى وقدمى، ولحظة نسيت نفسى فاندفعت أستجيب للطرق الملح على الباب..

وتوقفت، نزعت نفسى من الألم، والخوف، واللزوجة المحيطة بكل وجودى.. ولملمت نفسى وتحاملت ووقفت، كنت أهتز، كان جسدى كله لا يعرف كيف يتماسك، وكان هناك ألم مخيف فى وجهى وكانت يدى ترتجف، والطرق مستمر، لا يتوقف، ولا يتراجع، وشىء فى عقلى يستجيب، ويريد أن يذهب ويفتح الباب، وشىء فى داخلى يرفض ويصرخ أن هذا كمين.. فمن الذى يطرق الباب ويصر..

ورفعت يدى إلى وجهى، كان الدم ينثال من أنفى، هل الموت قريب، ما أحلى أن أموت. ما أحلى أن تخرج حياتى كلها من أنفى.. الدم لزج، وهو لا يتوقف.. وشىء آخر لا يتوقف أبداً.. هذا الطرق على الباب، وهذا الصراخ فى أعماقى أن أرفض كل طرق وأن أعود إلى سريرى من جديد.. والدم ينزف من أنفى، وعرق بارد يملأ جبهتى، ولزوجة تغلف راحتى، ولا أعرف ماذا أفعل.. فأقف حائراً فى الصالة، والطرق يدوى من جديد..

وتحركت قدماى فى ضعف ووهن، وكنت من غير أن أحس، أقصد الحوض عند مدخل الصالة، وفى بطء شديد وصلت إليه، وفى إصرار شديد نسيت الطرقات عند الباب، وفى شجاعة شديدة نسيت آلام وجهى الممزق، وتعاسة فى داخلى ترافق كل شىء، وتغلف كل شىء بيأس مرير، يجعل كل شىء يتحول إلى عبث وهراء، وتفاهة لا معنى لها.. وانحنيت فوق الحوض، وفتحت الصنبور، وتدفق الماء.. وأخذ الدم المنثال من أنفى يختلط بالماء المتدفق من الصنبور، وأحسست براحة، كان اندفاق دمى شيئاً مريحاً، مع اندفاع الصنبور بالماء.. كان شىء ما يشاركنى تعاستى، وخطوة خطوة، فقد الماء المتدفق فوق راحتى من الصنبور وأنفى، ملمس اللزوجة.. ورفعت راحتى إلى عينى ولم يكن هناك إلا الماء، اختفى لون الدم.. ورأسى ما زالت تدور، وأنفى تنبض داخله مضخة، والطرق يعود يشتد من جديد، وكأنه يتجاوب مع النبض فى أنفى، فأحس بالألم ينفذ إلى رأسى فتدور، وتدور من جديد..

والماء يسقط من السقف نقطة بعد نقطة، كأنها تنزل وسط رأسى، حيث يتجمع كل معنى الدوار والألم.. وتحفر لها طريقاً وسط الشعر

المبتل، لتصل إلى جلد الرأس، وتسقط قطرة قطرة، فى اتساق مع هذا النبض الرهيب عند أنفى وهذا الطرق الملح فوق الباب.. نقطة وراء نقطة، وشيء ينفذ إلى نافوخى، قطرات الماء.. أنا مبلل، وداخل رأسى قطرات تنزف إلى مخى، إلى أنفى، إلى عينى.. وأندفع لاهثاً نحو السرير، الملاءة الممزقة ملقاة على الأرض.. وكنت أرتجف.. رأسى يرتجف ويقطر ماء.. وجهى يرتجف وأنفى يقطر مزيجاً من الماء والدم، وجسدى يرتجف ويهتز لا يستطيع أن يعيد سلامه مع نفسه، وقدماى ترتجفان وأنا أهتز فى سيرى نحو الملاءة.. ممزقة مهترئة، ولكنها الدفء والأمان..

وعاد الباب يطرق من جديد، ورفعت رأسى.. وعند السقف كان الماء يتسرب.. والملاط يسقط، ودوائر غريبة من البلل تحيط بكل ما تبقى من ملاط السقف، رأس أنفى تتلوى، تريد أن تنفث سمها فى شيء ما مواجه لها، ما هو هذا الشيء؟ رأس رجل ملثم، يتحول.. رأس ثور له قرنان.. يتحول، رأس ذئب، أذناه مرتفعتان، منتصبتان ثم هما قرنان، ثم هما دائرتان ثم كل شيء يغيم.. وتتحول بقع السقف فوق الملاط إلى شيء هلامى كأنه سحابة متحركة، وتغيم عيناى، ولم أعد أرى.. والطرق يشتد، ونسيت كل شيء..

ومددت يدى وأنا أتمدد فوق سريرى إلى الملاءة، شيء مهترئ ممزق، ولكنه يحوط جسدى، ويلملم أكتافى ويدى وصدرى وأنفاسى..

والطرق يشتد، مصرا.. عنيفا يشتد، لا لن أفتح، سأتكوم فى السرير، ألم الملاءة المهترئة لتضم رأسى وقدمى، وتنداح من عند

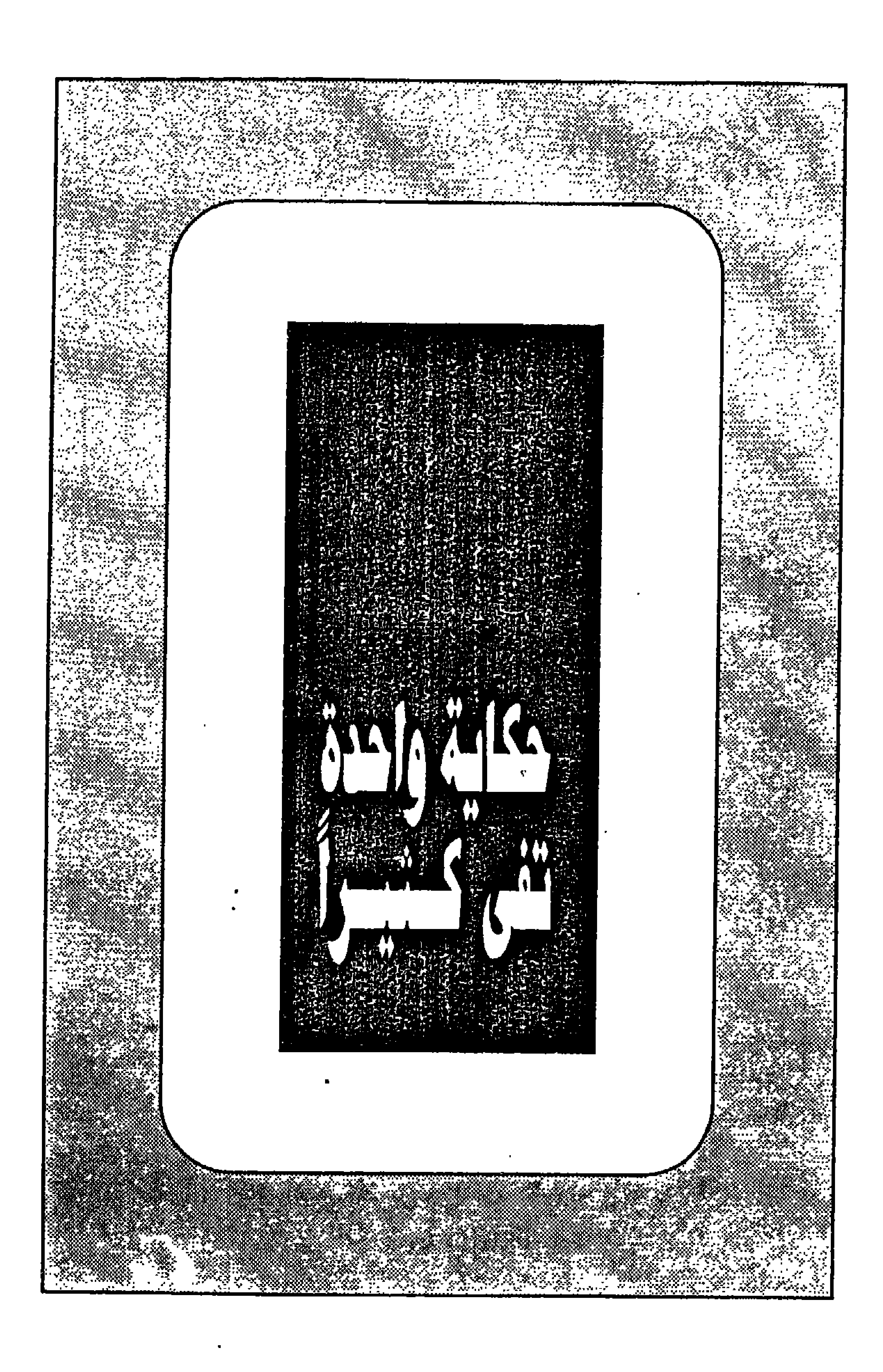
رأسى، وألمها ثم تتقاعس عند قدمى.. والطرق يشتد.. والماء يتقطر من خلال شعرى، ورأسى تدور، وتدور، وجسدى كله يهتز، فأنا محموم.. أو أنا خائف مذعور.. ويطل الفأر العنيد من عند حافة الحائط.. عند التقاء الحائطين فى الزاوية، يقف بريئا مصرا عنيدا، يهز شواربه، ويتحرك فى هدوء وتؤدة .. كأن لا شىء يعنيه، ولا شىء يهمه.

ولم يكن يستطيع أن يتحرك ليضربه بفردة حذاء أو بأى شىء بكتاب، أو كراسة، أو حتى قلم.. كان عاجزا عن الحركة، والفأر حر، يهز له شواربه ، ويقف فى مكانه القريب وسط التقاء الحائطين فى تحد مستفز، ووقح..

والطرق يشتد من جديد،.. ماذا يريدون، هو ليس هنا، هو مات من هنا من زمن.. والفأر يسرع فجأة ليختفى عند زاوية التقاء الجدارين، والملاءة تنزلق من فوق جسدى كله مع حركة الفأر السريعة المفاجئة. وأحاول أن ألملمها من جديد فتعرى قدمى ثم أحاول أن أغطى قدمى فتعرى رأسى.. ياكم تعرى رأسى.. ياكم تعرى..

ويدخل بعضى داخل بعضى، وألتم فى أقل مساحة ممكنة وسط فراشى الذى يهتز مع كل حركة فى جسدى ونقطة من السقف، وراء نقطة، وطرقة من الباب وراء طرقة ومن صنبور الصالة الذى لم أحسن غلقه تتساقط نقاط ونقاط.. ويتساقط حولى كل شىء، وأغمض عينى، وأغطى أذنى، وأهتز من البرد والخوف والضياع...

وأعرف أننى وحيد.


حكاية واحدة
تقى كثيراً

حكاية واحدة تفى كثيراً

كان لقاؤها صدفة، وصدفة مريبة فى أن يتم اللقاء بالطريقة التى حدث بها، فمن كان يظن أن بعد كل هذه السنين التى مرت، يمكن أن يراها وأن تراه ـ وقالت:

ـ لا أعرف أهى الصدفة أم أننى دائما أتتبع أخبارك وأتتبع حكاياتك فى كل مكان وزمان.

قال:

ـ لم يغادرنى رسمك ولا صوتك أبدا، وأنت لا تعرفين كم تعنى صورتك المجسدة أمامى الآن. قالت وهى تضحك معاتبة:

ـ تعنى أنك لم تنس.

قال وهو يتلفت حوله حتى لا ترقبه عيون لا يريد لها أن ترقب هذه اللحظة، الصدفة، العمر:

ـ ما وجد بعمق لا ينسى بسهولة وسطحية، والحياة فى هديرها العالى لا تخفى همسا حقيقيا وصادقا عاش، وكان.

ضحكت بصوت عال يلفت كل من فى المكان وقالت:

- كم أحب أن أسمع هذا الكلام، فقد نسيته تماما واختفى من حياتى ووجودى، رغم أننى أحبه - أعنى أحب الكلام. هذا الكلام.

قال:

- ليس فى حب الكلام خطيئة.

قالت فى دلال:

- ولكنه يذكر بخطيئة.

همس وهو يطرق إلى الأرض برأسه وعينيه:

- ربما كان ما بيننا يوما خطيئة ولكننا الآن تجاوزنا كل هذا

قالت وهى تضحك:

- هذا حديث لابد أن نستكمله، فأنا لا أكاد أصدق أننى عثرت عليك صدفة.. ولن أتركك تفلت من يدى بسهولة.. فأين ومتى أراك..؟

أطرق وصمت، وصور عديدة تمر فى وجدانه، هذه العيون المتحدية الآن، كم كانت خاضعة رقيقة موحية وهى تعطى ما فى القلب البكر من لهفة وحنان.. وهذه الابتسامة الخبيثة الآن، كم كانت تحمل معنى الصفاء والرغبة والعطاء.. كل ما فى وجودها كانت تشى به هذه الابتسامة، انفراجة الفم وانفراجة الثنايا.. دعوة حب أبدية لا تنتهى، عاشها حتى نسى فيها نفسه ووجوده ونسى كل شىء إلا هى.

أعوام وأعوام وليس إلا هذا الجسد اللدن المطواع، قمة جسد امرأة في مطلع العمر، كل جزء شيء مثير، كل متعة حياة صاخبة، كل انفراجة عطاء لا ينتهي.

وضاعت في وجودها سنوات عمر.. وضاع هو معها.. حتى نسى نفسه، ونسى كل شيء إلا هي.. وهب الاعصار، والتنين مد أذرعه المخيفة إلى كل شيء، وهاج الريح وماج، وظهر الديناصور فسحق كل شيء في مساره، وانخفض الصوت، ولم تعد تجدى السهام والحراب والسيوف والأقواس، كل شيء يخاف من كل شيء، ومرت بنا صور ومضت، وإذا كل شيء أشلاء.. الحب أشلاء والعمر أشلاء، والكل أشلاء.

قالت:

- تنسى حديثي دفنوه بعيدا عنى، وأنا أمامك، قلت لك هذا حديث لابد أن نستكمله.. فأين ومتى وكيف..؟

قال في استسلام

- أنت تحددين - متى وكيف.. أما أين، فأنت تعرفين لاشك ياسيدتى المكان هو نفس المكان.

ضحكت في عنف وهي تعدل من وضع خصلة شعر نافرة وقالت:

- أنت تعرفين يا سيدتى - ما أجمل هذا كأنه سطر من كتاب.

نظر إليها طويلا قبل أن يقول:

ـ وأنت كما تعرفين سطر من كتاب طويت صفحاته من زمن ولكنى اشتهى أن أفتح صفحاته من جديد فماذا فيه، وماذا تعنى كلماته، وماذا تقول حروفه؟

ضحكت، ثم ظلت تضحك حتى ظن أنها تضحك بلا سبب، ثم تمالكت نفسها وهى تقول:

ـ كنت أشتهى أن أسمع هذه الكلمات، كم انقضت من سنوات دون أن أسمعها..؟

نظر إليها فى دهشة وهو يقول:

ـ مثلك لا تكف أذناها عن سماع هذا الكلام، فما بال زوجك.. ألا يراك؟

عادت تضحك، وقطع الكلام بضحكها العالى النبرة ـ الغريب الوقع .. ثم قالت؟

ـ قال لى هذا الكلام كثيرا، ثم قاله، وقاله، ويقوله الآن.

وسكتت.

لحظات مرارة مرت، ثم توقفت، ثم سارت، ولا تريد أن تعبر..

ـ أتبحثين عندى عن شىء ما لم يقله الآخر ـ أعنى زوجك .

ضحكت، ثم ضحكت، وحين كفت عن ضحكها قالت:

ـ الآخر غير موجود.

قال:

ـ كيف؟

قالت:

ـ انس كل شيء.. ولنسترجع ما مضى

***

جاءت، وضحكت، وتحدثت في أشياء كثيرة، ثم صمتت، وطال صمتها.

ولفهما صمت مريض، كل شيء يدور، وهي تقترب وتقترب، وهو في دوامتها يعيش.. الرائحة ليست هي الرائحة، والجسد غريب هذا الجسد، البطن تضخمت، أما الأثداء ما إن يقترب كفه منها حتى تصرخ في ألم واحتجاج.. وتكورت وتعرت..

هل السنون تفعل هذا كله في جسد امرأة..

كان في عينيها استجداء أن يشتهيها ويريدها ولكنه كان بعيداً عنها تماماً.. أعوام مرت وهو يذكرها.. المهرة اليقظ الحرون.. الجسد المتوفز الصاعق.. والآن كل شيء بقايا وأشلاء.. بصمات كثيرة أحدثت كل هذا الدمار.. أكوام من اللحم فوق أكوام، عند الساق، وعند الساعد وعند البطن وعند كل شيء ـ متى تكون كل هذا وكيف؟ وهدأت حركته، وبدأ يبحث عن وسيلة إلى الخلاص..

وقالت وفي صوتها رجاء:

ـ لا أرجوك.. أنت تعرف، أريد أن أتذكر كل ما عشناه، وطوال هذه السنين لم أعرف غيره، أعني زوجي.

وابتسم فى مرارة عميقة فى داخله فهذا الذى حدث لا يحدثه زوج واحـد أبدا.. هى لم تكف أبداً عن البـحث وعن المغـامـرة. ولكنه لا يستطيع أن يكاشفها بهذا وإلا أخبرها أن جسدها يشى بها، وبما علق به من بصمات.

وعادت تقول من جديد بلهجة مستعطفة مستفزة رغم أنه ابتعد، وابتعد، وجلس يرقبها فى صمت.

ـ لا أرجوك، احترم وفائى لزوجى..

قال وهو يتنهد بارتياح:

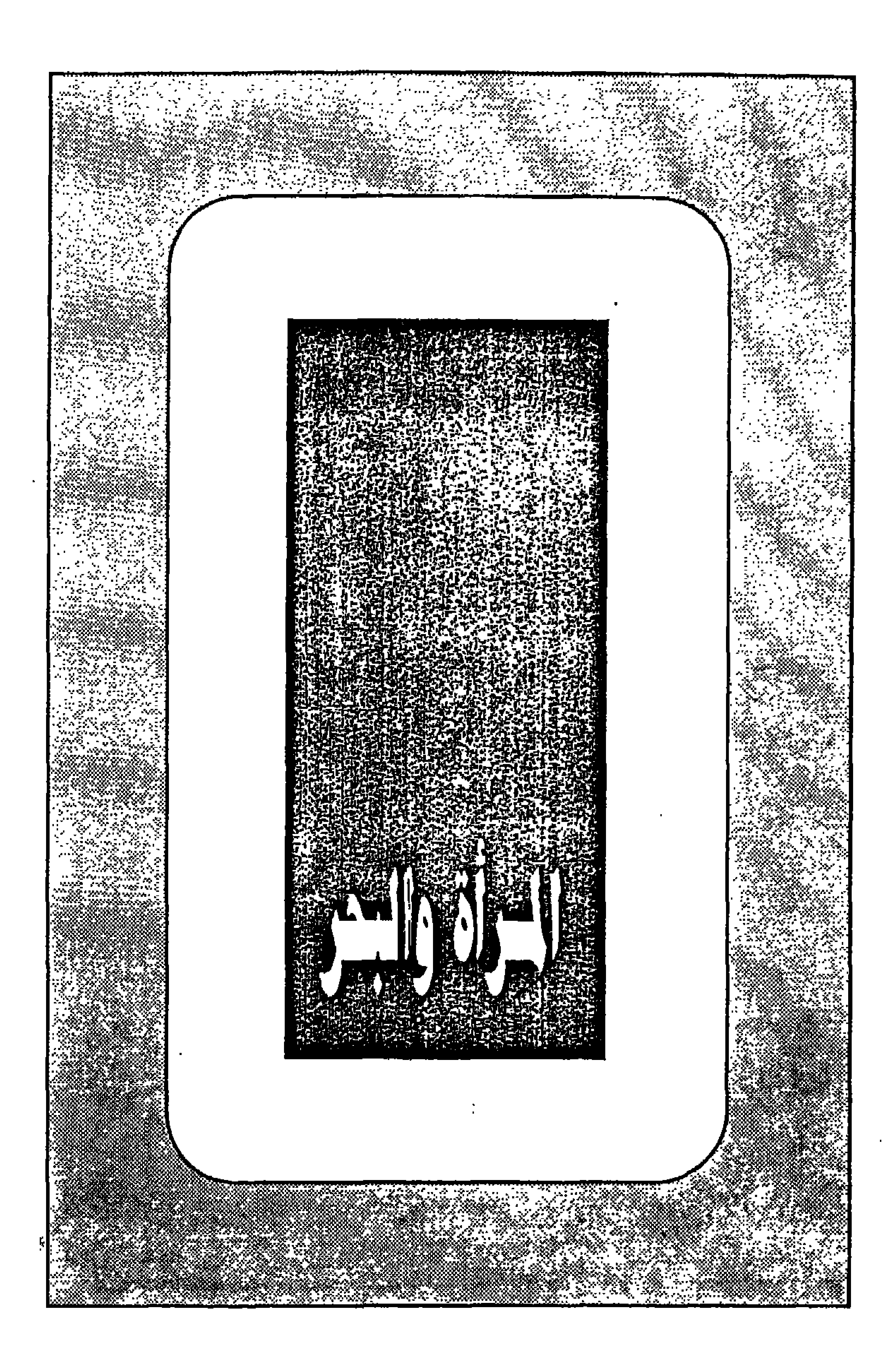
ـ بالفعل، هذا شىء يجب أن يحتـرم، مـا رأيك فى أن نشرب القهوة سوياً، انتظرى، عندى (بن) رائع، لحظات وأصنعها ثم نشربها سوياً.

كانت فى عينيها نظرة صاعقة، ولكنه حمل نفسه حملاً إلى المطبخ.. كل شىء يدور يتكور ويتضخم وأصبح منفصلاً عن كل شىء آخر، والكل هامد لاحس فيه ولا دعوة فيه، ولا استجابة له.

وتذكر جسدها العارى تحت الدش، وهو يتوثب حيوية وشبابا ورغبة وإيحاء ومعنى.. وتذكر صيحاتها المرحة وهو يضمها إليه فينسيان كل شىء إلا أنهما أحياء، وأنهما يعيشان لحظة لا تعود.

فعلاً كانت لحظات لا عودة لها.. وحين جاء بالقهوة كانت معتدلة فى جلستها تنتظر قدح القهوة فى هدوء..

من يومها لم يرها..


المرأة والبحر



لم أعرفها إلى جوار البحر، بل عرفتها ونحن نجلس في سطح فندق متسامق عال عن كل الأبنية ونطل على النيل الذى يبدو لنا بعيداً من هذا الارتفاع، قريباً يتدفق حولنا فى هذا اللقاء عند حافتى منضدة فى مطعم هذا الفندق فى أواسط الصعيد فى مصر..

ولم أكن أنا الذى أخترت المكان، فقد كنت غريباً وضيفاً على المدينة، وعلى الفندق، وعلى هذا السطح، وعلى هذا المكان، بل وعلى هذا الزمان أيضاً، من يدرى ربما كنت ضيفاً أيضاً وغريباً على هذه المجموعة من المشاعر والأحاسيس التى اجتاحتنى وأنا أجد نفسى وسط المطعم الأنيق، وحيداً معها، فليس الانا ومقاعد كثيرة خالية، ومناضد كثيرة خالية، والشمس تميل إلى الغروب، ومن بعيد تهز رجفات الهواء سطح النيل فتلمع عليه آخر أشعة الشحوب المريضة، شحوب الغروب الحزين..

وقالت: أحب أن تقرأ لى..

ثم استدركت قائلة: أتحب هذا المكان، هو أرقى ما عندنا فى هذه المدينة البعيدة عن كل شيء.. ثم صمتت من جديد للحظات وهى تخرج أوراقها من حقيبتها، وعادت تقول فى صوت بدأ يملؤه إيقاع سخى:

ـ اخترته خصيصاً لكى نكون وحدنا ساعة الغروب، والنيل يلوح من بعيد، والمدينة تحت أقدامنا.. هل يعجبك..؟

وتركت سؤالها دون جواب، فقد توقف المصعد وخرج منه فتى وفتاة أسرعا فى خجل حقيقى إلى مائدة منعزلة بعيدة، يجلسان فى صمت، والفتاة تتلفت حولها فى خوف، والفتى يحرك المقاعد ويسوى ملاءة المنضدة فى عصبية وهو يرقب الساقى العجوز يتحرك نحوهما فى هدوء وتؤدة، وابتسامة لا هى مريحة ولا هى عصبية، وإنما هى شيء حيادى أقرب إلى الاتهام، وإلى الغفران معاً..

وعادت تقول وهى تتضاحك وترد خصلات عبث بها هواء الغروب:

ـ يفتنك المكان حتى يصرفك عنى..؟

ولم يكن المكان يفتننى، ولم تكن هى أيضاً تفتننى، وإنما هى أحكمت المصيدة، وأنا كنت متعباً فدخلتها وأغلقت الباب ورائى، ولماذا لا.. وما تزال أمامى ساعات طويلة حتى يحين موعد قطار العودة.. قلت فى وهن:

ـ جئنا هنا لأقرأ لك، فأين ما تريدين منى قراءته..

ولم تلتفت إلى لهجتى الجافة الباردة، ولا إلى صوتى الواهن اليائس، فقد ملأها الزهو بنجاح ما دبرت فلم تعد تلتفت إلا إلى ما يمور فى داخلها من انفعالات حادة متعاقبة، ومدت يدها إلى حقيبتها تخرج مجموعة أوراق وهى تدفعها إلى وقد نسيت ساعة الغروب، والنيل الذى يلوح من بعيد، وتلك المدينة القابعة تحت أقدامنا، وقالت:

ـ أحب أن أعرف رأيك فيها.. هى قصة جديدة لى.. أنت تعرف أنا نشرت أكثر من قصة فى أكثر من مجلة فى العام الأخير.. وقد حددت مستقبلى على ضوء الفن، فأنا فنانة حتى أطراف أصابعى.. و.. ومضت تتكلم ومضيت فى صمت أقرأ.. وأحضر الجرسون عصيراً لها وقهوة لى، وشربت قهوتى، ودخنت أكثر من سيجارة، وأنا أجتاز الصفحات وأحترقها واحدة واحدة.. مرة أو أكثر تعثرت فى بعض الكلمات ويتأكد عندى خطأ الإملاء والنحو واللغة على السواء.. وأتجاهل العطر الذى يفوح من ردائها وشعرها، وأتجاهل نظراتها التى تسلبها وترفعها فى عجل، ثم ترسلها حالمة فى تأمل، وأمضى أقرأ من جديد..

ومع القراءة كانت تقفز إلى ذهنى أصداء معلومات قديمة، فقد كانت القصة مليئة برغبة جارفة فى الرى.. عطش شديد إلى شىء يفيض ويغمر، ويملأ الوجود حولها ببلل عبقرى، وليس أشد بللاً من البحر، فهى أمامه على شاطئ الاسكندرية تتأمل فى الليل والوحدة والوحشة عنفوان البحر وعرامة موجه، وخشونة صوت أمواجه المتكسرة التى تمتد كأنها أيدى ظمأى تريد أن تقطفها وأن تجرفها .. وهى فى كلمات القصة تحن الى أن تصل إليها هذه الأيدى لتقطفها

وتجرفها إلى الأبد وهى فى النهاية تخرج فى الليل متجهة إلى البحر مسحورة بصوته مشدودة الى موجه، شبقة إلى عنفوانه.. ولا تعود .. ومن الأرفف العتيقة التى تخزن فيها الذاكرة ما يعن لها عبر القراءات وعبر الزمن، تذكرت أن قربان النيل كان امرأة فتاة تختار لتزف إلى النيل ليرضى ويفيض، وكأنه لابد أن يغمر هذه الفتاة بمائة ليعود فيغمر الأرض بخصبه وعطائه.. لم يكن القربان الآدمى أبدا فتى، وإنما فتاة.. والحكاية تكرار لقصة الوحش الذى يجثم على باب مدينة يأكل أهلها ويفترس إبلها وأبقارها، ولا تجد المدينة بدا من أن تقدم له عذراء كل حين ليفترسها ويغفر للمدينة وينسى بها صيده السهل من أهلها ومالها..

ومن نفس الأرفف جاءت تسعى، حكاية أو ليس فى الالياذة وكيف طلب من بحارته أن يضعوا الشمع فى آذانهم، ثم يقيدوه إلى الصارى حتى لا يندفع أو يندفعوا تلبية لنداء جنيات البحر التى تغرى كل بحارة السفن عند المضيق الأسود. مضيق الموت فيتركون سفنهم ويقفزون إلى البحر استجابة لندائهن الساحر القاتل من أن.. ثم تذكرت حكايات الصيادين العرب مع عروس البحر التى تغنى وترقص فوق الماء لتغرى الصيادين والبحارة أن يلقوا بأنفسهم اليها ليبتلعهم الماء فى صحبة عروس البحر أو جنية البحر، ولا يظهر له بعد ذلك أثر.. ومن ألف ليلة وليلة وقصص السحر حكاية هذه الطاسة السحرية التى تملؤها الفتاة العذراء بماء البحر ثم تتلو عليها ما عندها من عزائم ورقى ثم ترش بها الفارس المسحور، والذى سحرته جنية أو ساحرة عجوز، أو امرأة عاشقة مهجورة، فإذا به يعود من شكل الحيوان الذى سحر إليه، إلى شكله الإنسانى الذى خلقه الله عليه، ويتزوج من منقذته العذراء

الساحرة التى استعانت بماء البحر والعزائم لتنجيه من الطلسمات والسحر الأسود.. وهذا القمقم الذى يعثر عليه الصياد الطيب أثناء صيده ويفتحه فيخرج له مارد مهول يخيره بين ميتات عديدة كل منها أشد هولا من الأخرى جزاء وفاقا لإنقاذه إياه من سجنه الأبدى فى القمقم الغارق فى ماء البحر..

ومن هذه الأرفف المتربة المنسية جاءتنى أيضا حكايات الصابئة وكيف أنهم يعقدون عقود الزواج أمام الماء، البحر أو النهر أو البئر، فقط لابد من وجود ماء، وماء جار وليس آسنا ساكنا، ومزارات الخضر فى العراق والشام كلها مزارات تقوم على حافة ماء، نهرا كان أم بحرا أم بئرا.. وحين رمى (ست) تابوت (أوزير) إلى البحر حمله البحر الملح إلى شاطئ الشام حيث حفظته عشتر فى معبدها، واستكن التابوت فى حضن أحد أعمدة المعبد.. وموسى رمته أمه إلى النهر فحمل مهده فى حنان ورفق إلى قصر فرعون.. وكان ميلاده الجديد..

والماء ونداء الحب أو الميلاد أو الخصب.. البحر والفحولة والعرامة وقصص العشق والموت.. وهذه الفتاة إلى جانبى تكتب كلمات مجنحة كلها الشوق إلى هذا المجهول المهول القاتل، إلى البحر العام ويحتويها ويلاشيها ويفنيها أيضا.. ورفعت عينى أنظر إليها، كانت تتطلع إلىّ فى لهفة، فى عينيها جوع، وفى صخب شعرها ثورة، وفى زمة شفتيها آثار عطش وجفاف، وفى الكلمات التى كتبتها كل هذا وأكثر..

ونظرت فى داخلى، ولم أكن بحرا ولا نهرا، ولا حتى ترعة.. لا صخب ولا موج ولا ضجة.. ونظرت إليها مرة أخرى وتعجبت، ثم جاءتنى كلماتها توقظنى على الحقيقة قالت:

- ألا ترى؟ هى عمل جديد قصة جديدة تماما، أظن أنك ستكتب عنها عندما تنشر، فهى ستنشر فى عدد الشهر القادم من المجلة الأدبية الشهرية، لقد طار بها رئيس التحرير فرحا، وقال لى إن قصصى دائما لها مكان دائم فى مجلته..

وابتسمت فى داخلى، فلست البحر إذن، وإن كان الأقرب أن أكون عجوز البحر. ذلك الذى التقاه سندباد فى إحدى الجزر، وضعف أمام سنه وضعفه وعجزه فحمله فوق أكتافه لينال الطعام من فوق قمم الأشجار، ولينقله من مكان إلى مكان فى راحة وسعادة.. ولكن سندباد استبد به التعب والنصب، وأراد من عجوز البحر أن ينزل عن كتفه ليستريح.. وهنا ظهر الوجه الحقيقى لعجوز البحر.. فهو لن ينزل أبدا عن كتف سندباد، يضربه بكفيه، ويسوقه سوقا بمرفقيه وفخذيه، وهو أسير أبدا لهذا العجوز الذى يسوقه عبدا خاضعا لا يستطيع فكاكا.. وينتقى العجوز من فوق الشجر الثمرات يأكلها باستمتاع ويرمى قشرها وبذرها فوق رأس السندباد، والسندباد لا يستطيع أن يحتج وإلا أصابه من ضغط فخذى شيخ البحر ما يكره وما يتألم منه فى جسده ونفسه معا..

ولست أريد - فيما يستقبل لى من أيام - أن أحمل فوق كاهلى شيخ بحر فاتن كهذه الفتاة فأنا لا أحب شيوخ البحر، ولا أحب أن أحس أن فوق كاهلي حملا يرغمنى على السير حيث يشاء، ليقتطف الثمار ويرمينى بالقشور والبذور.. وقلت:

- القصة جيدة لولا أخطاء اللغة..

واختفت الابتسامة، واختفى جمال الوجه، وحل محل الإثنين تقطيبة وتجهم فى ملامح الوجه وتوفزت عضلات الجسد كله، كأنما يستعد لمعركة جسدية، وقالت:

- اللغة لا تهم، ثم أنا أكتب، وما أكتبه وحى الفن، فهو المهم أما (النحوى) الذى تصرون عليه فلا علاقة له بالفن..

لم أكن أريد أن أخبرها أن اسمه (النحو) وليس النحوى، ولم أكن أريد ان أدخل معها جدلا عقيما، فهناك من أفهمها أنها قمة فى الفن، ومكتشفة جديدة فى دنيا التعبير، فقط ابتسمت وقلت:

- انت تعشقين البحر، ولن يشفيك من داء الأدب إلا إذا التقيت ببحر زاخر الموج، عاتى الرياح..

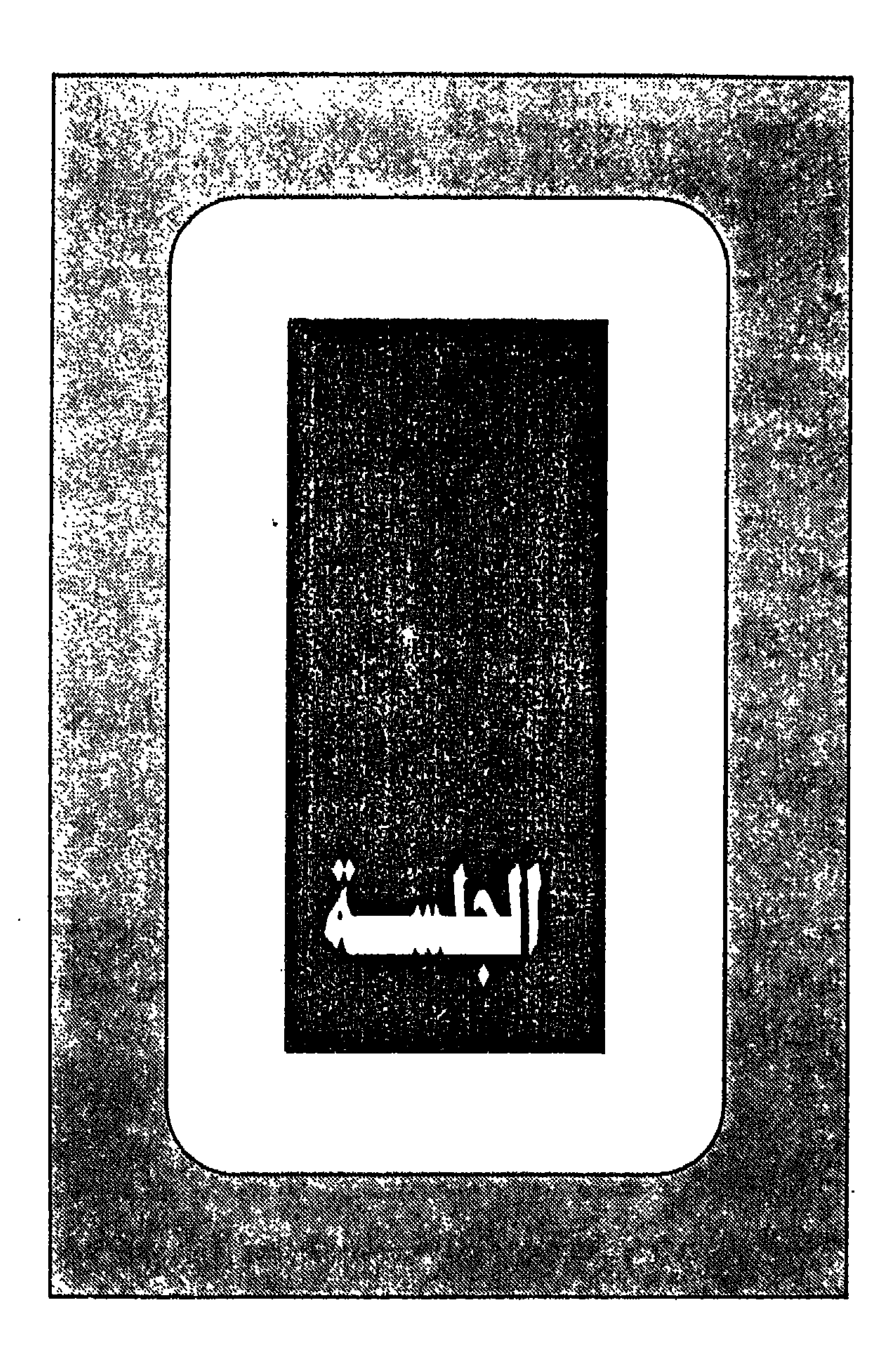
واشتعلت عيناها غضبا، واختطفت من يدى الوريقات الأنيقة، وجمعت حاجياتها فى حقيبتها، ونظرت إلىّ نظرة ازدراء واحتقار، ثم أسرعت تغادر المكان ..

وأشرت إلى الجرسون يحضر لى قدحا جديدا من القهوة، وأشعلت سيجارة، وجعلت أتأمل منظر النيل من بعيد، والمدينة بمنازلها المتناثرة

تلوح من خلال الشرفة الواسعة في هذا المكان المرتفع كأنها بقايا حياة..
وأمامي الفتى والفتاة انهمكا في حديث لا يسمعه الا هما..

***

عرفت بعد زمن ان الفتاة التقت ببحر بكر التجربة، ترك زوجته وطفله من أجلها وتزوجها.. وطلقت الأدب، ولم تعد كلمات رئيس تحرير هذه المجلة الثقافية يستهوى عاشقة البحر..


الجلسة



لم يبدأ أحد الكلام.. الكل صمتوا حين طلبت الكلمة، وصاح واحد على المنصة:

ـ الأستاذ فلان..

وسكت الجميع، واستعدت أكف للتصفيق، وتحركت أقدام فى قلق وتلفتت أنظار بكل مكان فى القاعة..

ولم يظهر الأستاذ فلان وباخ كل شىء..

كل من على المنصة يتكلمون بعضهم إلى البعض، والواحد الواقف يعلن أسماء المتحدثين يتلفت حوله ويكاد يغوص فى عرقه، والقاعة تنظر إلى القاعة، ولا أحد يخرج ليتحدث..

وباخ الموقف جدا..

وعاد الولد عند حافة المنصة يتلفت إلى المنصة، وأخذ من على المنصة ينظرون فى أوراقهم، ثم يهمس كل منهم إلى الآخر، وينظر فى

أوراقه، ويرفع نظارة ويضع نظارة، ثم ينظر حوله ـ ويهمس.. وهمس الرئيس، فأصغى الأعضاء، وأطرقوا برءوسهم، وعاد الرئيس يهمس إلى الصبى يقف عند المنصة فصاح:

ـ الأستاذ علان.

وفى القاعة رفع واحد نظارة ووضع نظارة، وتلفت حوله فى حيرة، وعاد يرد النظارة، ويخرج الأخرى، ويضع واحدة، وينزل واحدة.. وهمست امرأة أنيقة إلى أخرى إلى جوارها محجبة:

ـ ألم يظهر الأستاذ علان؟

وقالت المحجبة وهى تجول بصرها فى القاعة كلها:

ـ لم يظهر أحد.. هل كل الناس هنا لا يحضرون.. هذا حرام، ما ذنبنا نحن لننتظر الأساتذة ولاأستاذ يحضر ممن قالوا إنهم سيتحدثون.

وردت المنقبة وهى تعدل نقابها فى حرص:

ـ هل المنصة خالية؟

قالت المرأة الأولى في صبر:

ـ ارفعى النقاب الأعمى الذى ترتدينه، وستعرفين إن فلانا لم يحضر ولا علانا أيضا.. وهم ينادون عليهما ولا أحد يظهر.

وهنا صاح الرجل عند المنصة:

ـ الأستاذ تلتان..

وقال الولد الملتحى يلتصق بالمنقبة، ويتطلع إلى المحجبة، ويرمى بأنظاره إلى المرأة السافرة بعد الاثنتين:

ـ ياه تلتان هذا أحبه، وأريد ان أسمع كلماته فهو يريحنى، ولوقال.. آه أنا أحبه ولوقال سأمزقه تماما، فأنا أعرف كل الكلمات، وكل الحجج ، وكل النصوص..

ثم سكت وقال:

ـ ألم يظهر تلتان بعد؟

وكانت العيون تنتقل من صف إلى صف، ومن مقعد إلى مقعد، ولم يظهر أحد، لم يقف أحد .. ودارت العيون إلى يسار، ثم دارت العيون قلقة إلى يمين، ولم يظهر أحد رغم التوتر والقلق ـ رغم التوقع الحاد والمتوفز.. رغم كل شيء.. لم يظهر أحد.

وصاح الملتحى:

ـ كنت أتوقع هذا (التلتان) فعندى ما يفحمه، ما يسكته، يجعله يلزم حده ولا يخرج عن حده.

كان صبيا صغيرا، لحيته هشة، وكله عصبى المزاج، رقيق الجسد، مليئا بالعرق ينضح من كفيه، ومن شفتيه، ومن جبهته ومن لحيته ومن ساعديه، ومن ساقيه.. وقال:

ـ أعرف كيف ألقمه حجرا. لماذا لم يظهر؟ والحجر عندى جاهز.. وسنرى..

ودوى التصفيق فجأة، حين وقف الرئيس عند المنضدة، وسكت كل صوت، وتأهبت كل الآذان لتسمعه..

وتنحنح الرئيس، ثم تحرك فى مكانه، ثم عاد إلى وضعه، ثم عدل سترته، وصوبّ مكان رباط عنقه، وتنحنح وقال:

ـ أيها الأخوة، إن الموضوع بين واضح، وما طرحناه، ونطرحه أكثر بياناً ووضوحاً مما قلناه.. والآخرون الذين لم يحضروا يؤكدون أن وجهة نظرنا هى الحقيقة وهى الصدق.

وارتفعت الأكف بالتصفيق، وماجت القاعة بهتاف منظم:

ـ الكلمة ما قلنا، الكلمة ما قلنا..

ـ الحق والعدل ما نقول، والحق والعدل ما نقول.

ثم

ـ الشرع معنا، فالشرع هو صلب ما قلنا، والله أكبر ولله الحمد..

وعاد صراخ من جديد من آخر القاعة يهتف:

ـ الله أكبر، الله أكبر، يهزم الكفر، يهزم الكفار..

ومدت المحجبة يدها إلى المنقبة وقالت:

ـ انتصرنا، وانتهت المحاضرة لصالحنا..

وقال الملتحى:

ـ قلت لكم، لن يجرؤ واحد على الظهور أمام حججنا..

وقال آخر إلى جواره:

ـ كنت أريد أن يتكلم لأفحمه.

قالت المنقبة وهى تستند بيديها إلى المحجبة :

ـ كنت أعرف أنه لن يظهر فى القاعة أبدا.

وقالت المحجبة وهى تضغط بيدها على يد المنقبة:

ـ الحجة ألزمتهم، فلا شيء عندهم.

وصاح الملتحى وهو يقود الجمع إلى خارج القاعة:

ـ هزمناهم، وعرفوا الحق أو إن لم يعرفوا حتى الآن ما هو الحق، فقد ألزمناهم جحورهم، وغدا يعلمون.

***

فلان قال لعلان، وترتان يسمع وسرتان يحدق فيه:

ـ لماذا دخلوا بك إلى هذا المكان؟

قال تلتان وعلان وفلان يصغيان:

ـ ولماذا أتوا بك؟

قال تلتان:

ـ إذن فكلنا أتوا بنا..

قال علان:

- قبل المحاضرة

قال تلتان:

- لقد أعددت للمحاضرة عدتها وكتبت، وكتبت واستعددت لكل شيء، فجأة قال لي واحد - أنت تلتان؟

قلت: نعم. قال: اصحبني ولا تتكلم. . ولم أتكلم.. فقد صحبني إلى هذا المكان..

قال سرتان:

- كل ما أعددته، ضاع.. فلم أحاضر إذن؟

ضحك فلان وهو يقول:

- للقاعة..؟

وقال تلتان:

- أرجوك ، القاعة كما أعرف ملآنة.

قال سرتان:

- فلماذا أتجنب القاعة إذن؟

قال فلان:

- للآخرين.

قال تلتان:

ـ كنت أخاف هذا؟

قال سرتان:

ـ ولكنهم طلبوا أن نتحدث.

قال فلان:

ـ كان يجب أن تتحدث.

قال سرتان:

ـ ولكنهم أنهوا الجلسة دون أن أتحدث

قال فلان:

ـ فلنتحدث الآن وقبل أن ينفض الجمع.

وقال سرتان:

ـ لقد انفض الجمع ولم يتحدث أحد منا

قال تلتان:

ـ انتهى كل شيء، ولم ينطق أحدنا بكلمة.

قال سرتان:

ـ هذا في حد ذاته شيء طيب.

قال فلان:

ـ لا أفهمك، لقد انفض الجمع ولم يسمع لنا أحد شيئا.

قال سرتان:

ـ وهذا هو المطلوب.

صمت فلان لحظات قبل أن يقول:

ـ وهل هذا ما أرادوا منا؟

وساد صمت قطعه تلتان قائلا:

ـ كان لابد أن نذهب إلى بيوتنا.

وقال سرتان:

ـ تمام، لو قلنا ما عدنا إلى بيوتنا.

قال فلان:

ـ فأين نحن الآن؟

تلفت سرتان حوله، وتلفت تلتان حوله، وصمت كلاهما ولكن فلانا قال:

ـ فى الضمان، نحن فى الضمان.

قال تلتان:

ـ ألم تدرك أننا فى الضمان إلا الآن؟

قال سرتان:

- تعنى أننا وحدنا فى الضمان..؟

قال فلان:

- أنت وهو وأنا .. ونحن كلنا، فى الضمان..

قال تلتان:

- وإرادته؟

قال فلان:

- لا إرادة هناك، لم نحضر المحاضرة، ولم يقل أحد منا رأيه، وهم تركناهم كل يقول رأى كل.

قال تلتان:

- يسمع كل ما يقوله كل.

قال سرتان:

- ويؤيد كل ما يقوله كل!

قال فلان:

- فمكاننا فى المحاضرة إذن كان خطأ، لا وضع له - فلا أنت ستقول كل ما يراد، ولا تلتان، ولا سرتان.

قال سرتان:

- وتركنا المحاضرة لمن؟

قال فلان:

- لأصحابها..

***

كان الملتحى يقول فى زهو وعظمة:

- طردناهم، وحيث لم يجئ أحد، فقد انتصرنا ولا مكان فى القاعة بعد هذا إلا لأصحاب اللحى. اللحية هى الأساس فى الفكر. وهى الأساس فى التفكير، وكل ماعدا هذا انهزم.، ولم يحضر.

وقالت صاحبة الحجاب:

- نعم هزمناهم.. لم يحضروا، سواء عجزا، أم خوفا، أم اضطرابا، هم لم يحضروا والسلام.

وكانت صاحبة النقاب تقول:

- انتصرنا، انتصرنا، ولم يحضر الأعداء.

***

قال الرجل على المنصة:

- أيها السادة.. دارت المناقشة بكل الديموقراطية.. وثبت أن الديموقراطية هى الديموقراطية، وإننا نحن أصحاب الديموقراطية.

وتعالى التصفيق الحاد، والهتاف المتواصل بحياة الديموقراطية، وعاد يقول:

ـ أيها الحاجب.. هل ناديت على الكل؟

قال الحاجب:

ـ فلان، لم يحضر وتلتان لم يحضر، وسرتان لم يحضر.

تنهد البيك فى سعادة وقال:

ـ فالكل تام ـ لم يحضر المحاضرون، لأنهم يعرفون أن كلماتهم مريضة وسخيفة.

ومن آخر القاعة صوت ضعيف:

ـ يا سيد.

قال السيد:

ـ نعم.

قال الصوت الضعيف:

ـ وأين هم: فلان، وتلتان، وسرتان، فما أعلنتهم أنهم سيتكلمون لم يحضر أحد.. أين هم.؟

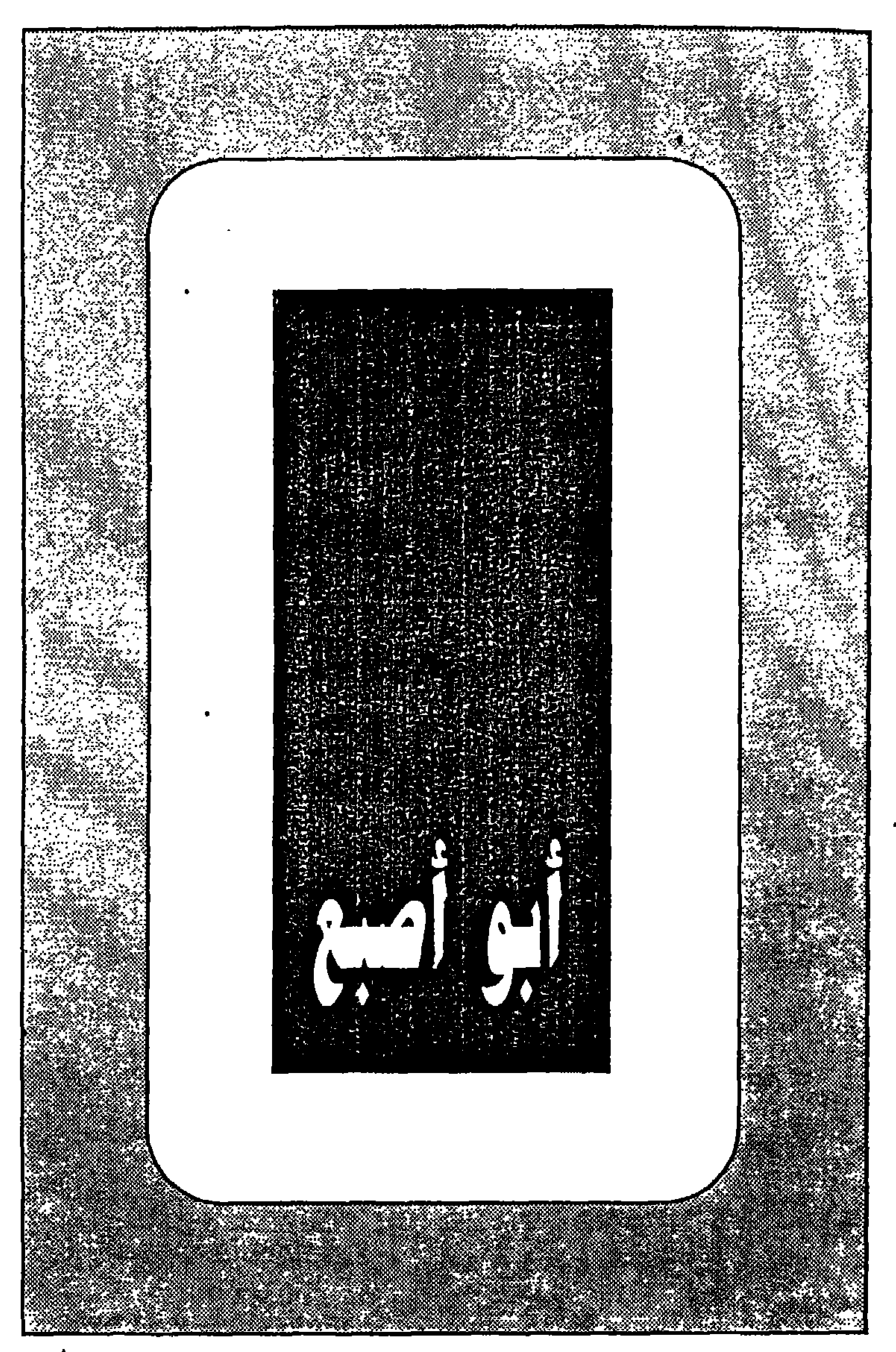
وابتسم السيد، وتأود، وابتسم السيد وتنهد، وهمهم السيد وتغندر وقال:

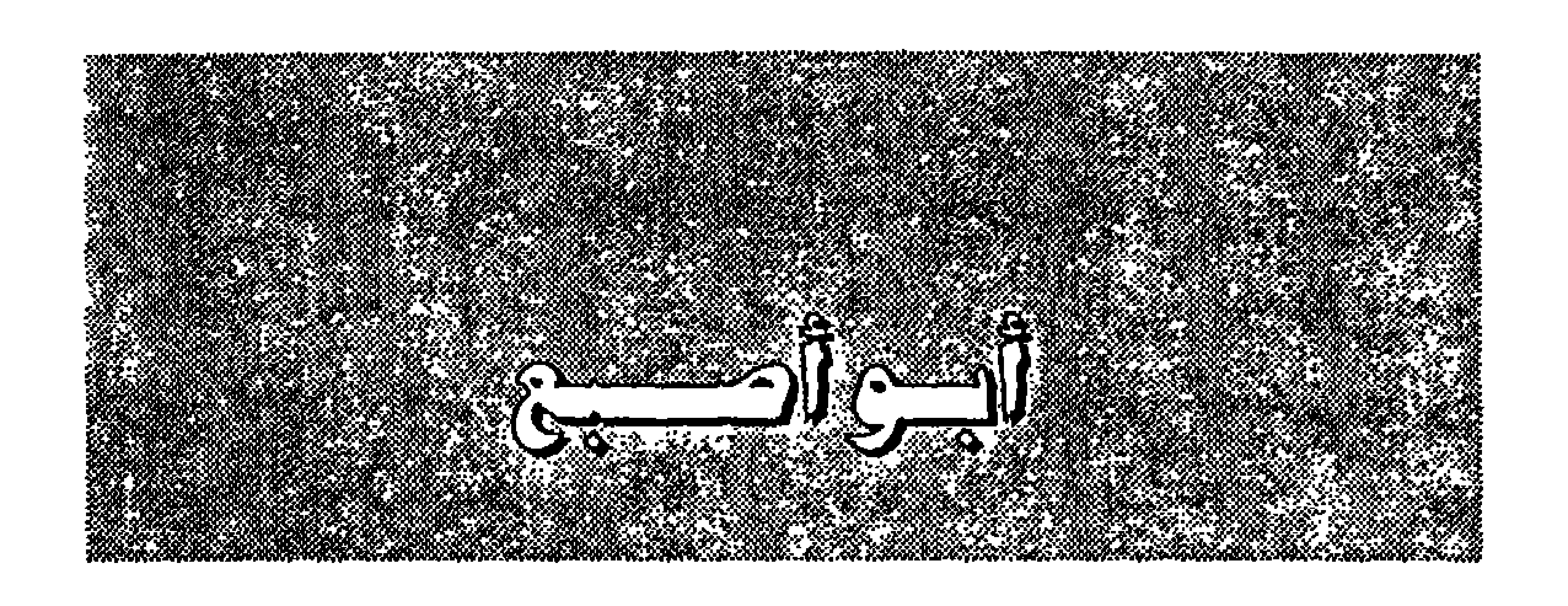
- لم يحضر يا سيد منهم أحد، فهم معنا هنا إذن، والا لحضروا، والصوت الذى لا يحضر يا سيد، هو صوت مؤيد.

وامتلأت القاعة بالتصفيق.

ونظرت المحجبة الى المنقبة فى سعادة، وهز صاحب اللحية لحيته فى انتصار وقال:

- نعم لم يحضر منهم أحد.. هذه هى الديموقراطية والحمد لله..


أبو أصبع



لم يكن أحد يظن أن عبدالستار أفندى يمكن أن يحب.. لا أمه التى أقسمت أن تنذر نذرا للسيدة إن وفقه الله إلى ابنة الحلال وأراد أن يتزوج بها، لتبيعن الإسورتين والحلق الذهب فى شبكة ومهر عروسه.. ولا أبوه الذى كان يقسم على المصحف أن الحسد قد أصاب ابنه، وأن العين قد منعت عبدالستار أفندى من الزواج فى الحلال، وفى شرع الله ورسوله.. فبات لا يعرف إلا الكتاب والمذاكرة، وسهر الليالى فى طلب العلالى.. والله حليم ستار يا أولاد، فقد فاته سن الزواج ولولا الإيمان لقلنا إنها عين الشيخ عبدالصمد، العين السوداء الحاسدة، التى ما إن رأته يدخل الجامعة، حتى حكمت عليه بالقهر والعدوان، والبغى الظالم المجنون. يا سبحان الله.. حتى أعمى الحسد نظره عن كل أنثى، عن فتحية بنت عبدالصمد شيخ الخفر، وعن آمنة بنت عبدالحميد صاحب القيراطين عند باب الكفر، وهى حلوة ولزجة، وكانت تخرج له كل صباح، وهو فى الإجازة تتمخطر حتى المراودة، حتى حافة الترعة، وهو لا يراها ابدا، ورغم أنه يسير وراءها يمسك كتابه ويذاكر فى غبشة

الصبحية وحتى الضحى.. وهى تتابعه فى حركاته، وتظهر أمامه فى كل لحظة، عند الترعة، وعند المسقى، وعند المرسى.. وهو يضع عينه فى الكتاب وينظر إليها من حين إلى حين وهو يذاكر ـ وتعود آمنة، والغسيل محمول على الصحن فى يديها، وهى تكاد تكفى الصحن وتلقى الغسيل، فالأفندى لم يرها بالكلية، وهو حين رآها، أسبل عينيه ومضى يردد كلاماً غريباً فى الكتاب، ويمضى فى طريقه، وكأنها لم تكشف ساقها، وكأنها لم تحكم القمطة على جبهتها..

ولكنه مع هذا أحب.. نعم أحب درية بنت القاهرة، أمامه هى فى (التراسينة) المقابلة تبتسم له كل صباح على استحياء، ثم تغلق نافذة (التراسينة) وتختفى داخل الغرفة، ولا تثير بعد هذا صوتاً ـ يشعل ضوء الغرفة، ثم يجلس إلى المكتب ويفتح الكتب أمامه، ويخالس (التراسينة) النظر.. وكل شىء مظلم فى (التراسينة).. ثم فجأة يلمع ضوء خافت، وتظهر البنت أمامه خلف (الشيش) تسرح شعرها الكثيف، وترتبه، وتضفره فى هدوء ودقة، وهو يرقب كل هذا فى صمت ورهبة، فهكذا تكون البنات. وتجلس إلى مكتب، وتضىء أباجورة، ثم ترفع كراسات، وتخفض كتباً وتنظر فى جدية إلى أمامها، وتمضى تقرأ فى هدوء، وكأنه لا ينظر.. وكأنها لا تعرف أنه ينظر، وكأنه غير موجود على الإطلاق..

ويشعل النور، ثم يطفئ النور.. ويترك مكانه ويتحرك إلى مكان آخر، ويشعل النور، ثم يطفئ النور.. وهى كما هى، كأنها رسمت فوق لوح ساكن، وتسمرت فى رسمها.. تجلس أمام كراستها وشعرها معقوص

فى ضفيرتين، وتنظر فى جدية مطلقة إلى ما بين يديها من أوراق، وبين حين وحين، ترفع قلمها لتدون على ورق، ثم تهز رأسها، وتمضى تقرأ من جديد.

يا بنات القاهرة

أليس لديهن شعور؟ ألا تعرف هذه البنت أنها تؤرق وجوده كله؟ وأنه لا يقرأ حين تقرأ هى؟ وأنه ينظر إلى الورق ولا يرى إلا هى؟ إلا الضفيرتين والوجه الملائكى الرقيق.. ينظر فى صمت إلى الورق.. ولا شىء.. وهى لا تنظر ناحيته، ولا تراه.

وتمضى الليلة من ليال عدة، وهو مؤرق.. حائر.. يأكل الفول، فى حذر، وهو ينظر إلى التراسينة، ثم يشرب الشاى فى حذر وهو ينظر إلى التراسينة، ثم يرتدى ملابسه فى حذر وهو ينظر إلى التراسينة..

وفجأة عند باب الحارة يدوى بوق السيارة، ويسرع لينظر من النافذة فإذا بالسيارة الكبيرة تقف هنا عند باب الحارة، سيارة مدرسة الميرديديه.. وتجرى البنت درية لتلحق بالسيارة وهى تهز ضفيرتيها، وشنطتها الصغيرة بين يديها.. وتركب السيارة، وتمضى السيارة، والبنت اختفت إلى حياة أخرى، يحملها إليها عالم سيارة المدرسة الأجنبية القبيحة.

ويجلس على الكنبة فى الصالة الضيقة، ويقول لنفسه:

ـ يا ولد، مالك وهذه البنت.

وتقول نفسه:.

ـ مالها، مدرسة الميرديدية، وتذاكر ومثقفة، وشعرها تعقصه فى ضفيرتين، وهى حلوة.. وشهية، وأنت رأيت من خلال (التراسينة) ـ ساقيها.. استغفر الله، بل رأيتها وهى تخلع المريلة.. مريلة المدرسة، وأشياء أخرى، الحمد لله إنك محفوظ ـ استغفر الله يا ولد، وإلا ركبك الذنب العظيم.

ولكنه لم يكن يستطيع أن ينام.. وكيف له بالنوم، وهى أمامه ـ كل حين، حين يفتح كتبه، تفتح هى كراريسها، حين يتعب من القراءة، يرفع رأسه فإذا هى تتثاءب متعبة من القراءة.

لا، هذا عذاب لا يطاق، لابد أن يحادث أباه.. أن يعرف رأيه.. أن يستقر على أمر فى كل هذا العذاب.

وقال أبوه:

ـ يا ولدى، مالك وبنات مصر.. البنات هنا كثيرات، اختر منهن من تشاء، والبنت يا ولدى كالبنت حين الزواج، كلهن سواء.

قال:

ـ ولكنى أحب هذه البنت يا أبى.

قال أبوه وهو يبسمل ويحوقل، ويدعو أولياء الله الصالحين:

ـ هذا وهم من عمل الشيطان، عد إلينا فى الاجازة القادمة أزوجك بنت شيخ البلد، وينتهى هذا الأمر كله.

طأطأ برأسه، وانحنى أمام أبيه وقال:

ـ أفعل يا أبى.

وحين عاد إلى الحارة الحية الصاخبة فى عصر ذات يوم كان ينوى أن يفعلها.. أن يحسم أمره، أن ينصرف عنها إلى الأبد، ولكى يفعل هذا وارب الشيش وظل ينتظر أن تظهر لكى يلفت نظرها ويعاتبها ويخبرها، ويحكى لها أن أباه، وأن البلدة.. وأن التقاليد، وأنه كاد يجن..

ولكنها ظلت مغلقة الشباك، صامتة المكان، مظلمته إلى أن نام.. ولم يدر ما أصابه، كان متعباً من الرحلة، كان مصدعاً من كلمات أبيه، كان حزيناً من بكاء أمه.. كان صوت الساقية والطنبور ونهيق الحمير فى الطريق من البيت إلى حافة الزراعية مزعجاً، فنام.. وفجأة هب على كل شىء فى داخله يزعق، حانت الساعة لخروجها وهى فى الطريق إلى المدرسة، وأسرع نحو النافذة، كانت نافذتها مظلمة، وكان غبش الصباح الباكر يملأ مدخل الحارة، ولم يظهر أتوبيس المدرسة عند حافة الحارة كالمعتاد.. وأسرع يغرق رأسه تحت صنبور الماء حتى يفيق، ويعود يجرى، عله يلحق بها وهى تتأود على بلاط الحارة فى اتجاه الأتوبيس..

ولا أتوبيس هناك، ولا أحد على بلاط الحارة إلا عم عليش يجر عربته إلى حافة الحارة مليئة بالكسكسى يبيعه كل صباح عند ناصية الحارة، مقابل الشارع الكبير.. ونظر فى الساعة، أوشكت على السادسة، كيف تأخرت؟ أو هل تركت المدرسة؟ أو تزوجت؟ أو تريد أن

تغيظه؟... عرفت أمر بنت شيخ الخفر، وكلام أبيه وبكاء أمه، فتركته يتلظى في سعير إحجامه وضعفه.. ومرت الدقائق، وهى لا تظهر، والنور لا يبين فى شباكها، وبلاط الحارة لا ينور بطرقات حذائها عليه وعند مدخل الحارة الرجل يبيع الكسكسي فى إصرار عنيد، يضرب الكبشة فى الإناء النحاسى، ويملؤها ليفرغها فى طبق صغير، ثم يضع السكر، وماء الورد، واللبن، ويمد يده بالطبق إلى ولد لم يغسل وجهه، ويمد الولد يده إلى الطبق المعفر المعبق بالدخان، كأنه سيلتهم الجنة.. ثم يعود الرجل إلى طبق غيره، وإلى منتظر يمد يده بالنقود فى لهفة.. ولا عربة هناك، والأتوبيس أتوبيس المدرسة لا يظهر.. هل جن، هل تغير شيء فى نظام الحارة؟ هل حدث في غيابه ما جعل أتوبيس المدرسة لا يظهر فى موعده؟ وجعلها درية.. يا وعدى على اسمها.. لا تذهب إلى الميرديدية؟ وفجأة أفاق على دقات ساعة الحائط عند الساكن الثرى، فوقها تماماً.. ونظر إلى ساعة يده.. السابعة ـ ضاعت المدرسة وضاع الانتظار، وهو ضاع أن ظل ينتظر، فاليوم يوم عودته إلى المصلحة، وينبغي أن يكون هناك فى الثامنة تماماً ليبدأ باستلام عمله بعد عودته من الأجازة.. وأسرع يرتدى ملابسه وهو لا يفتأ ينظر إلى النافذة المغلقة فى ضيق، لا أحد هناك وزرر البنطلون، وعاد يغسل أسنانه على الصنبور، وسط الصالة، ويسرع إلى النافذة، وكل شيء مظلم، ولا أحد هناك.. وأسرع يربط رباط العنق، ويعدل القميص داخل البنطلون ويتناول الجاكيت ويسرع إلى الباب ويغلقه، ويجرى على السلم جرياً، فإن لم يسرع فاته موعد الحضور، والمدير يا حفيظ، كل دقيقة بحساب، وإن لم تكن درية، فالعمل أولى ـ والباشكاتب عبد الحسيب

أفندى لا يرحمه، بوجهه الجهم، وهو يذب عنه بالمنشة ويقذف ضحكته المخيفة.. متأخر، ولا تعرف المسئولية وتتأخر عن المواعيد الرسمية، ولا ينتهى الحساب اللحوح حتى آخر اليوم.. ويذب عبد الحسيب أفندى بالمنشة الكثيفة، ويلعب فى شاربه الرفيع، وينثال من فمه كلام كالرصاص.. جيل آخر زمن ـ كنا لا نتأخر عن عملنا أبدا، قبل أن يبدأ موعد العمل يكون كل منا على مكتبه يا أفندى، كل الدفاتر منظمة، وكل شيء عال العال.. أما الآن، موظفون آخر زمن، وعلينا أن نحتمل الكسل والتوانى والتأخير، والإهمال ـ يا سلام.

أبدأ سيسرع، يستقل الترام إلى العباسية وفى ربع ساعة سيكون هناك، ويمضى الحضور، ويقطع الأجازة، ويكون كل شيء فى التمام.

وفجأة وقف فى مكانه وتسمر ـ كان قد وصل إلى باب المنزل الخارجى، وهو يندفع إلى الحارة ليخرج إلى الشارع والترام.. وفجأة كانت أمامه.. تتخطر على بلاط الحارة، ليتخطر كل شيء لخطواتها.. وتهتز الضفيرة الضخمة التى تحوى شعرها الكث كله فى لفة واحدة خلف رقبتها، فيهتز قلبه.. سكن فى مكانه، حائراً لا يفهم ـ ومضت حتى بائع الكسكسى فى خطو وئيد منتظم والضفيرة تهتز خلف ظهرها مع اهتزاز جسدها الكامل النمو، الواضح القسمات رغم البلوزة والجيب.. وهو فى مكانه كالمسحور يرقب ولا يتحرك.. وهى تمضى حتى مدخل الحارة، وتحيى بائع الكسكسى فى مرح، ثم تخرج إلى الشارع الكبير.. وهو فى مكانه لا يتحرك ولا ينزل إلى الحارة من مدخل المنزل كأنما

سمر في مكانه لا يستطيع أن يحرك قدميه.. يا درية.. لماذا؟ لماذا.. ماذا؟.. لا يعرف ـ ولكن لماذا؟ هو مهمل عند الباب ـ لا يحرك قدميه.. لماذا يا درية تدق أقدامك بلاط الحارة في اعتزاز وكأنك تملكين كل شبر فيها، لماذا؟ لماذا يا درية. سكتت الحارة هذا اليوم عند مرورك فلم يفتح دكان، ولم يصرخ ولد، ولم يتحرك شيء؟ لماذا كل شيء ساكن هذا الصباح يا درية؟ وعاد ينظر إلى الساعة، وعاد ينظر إلى الحارة من حوله، كل الدكاكين مغلقة وليست هناك ضجة الصباح.. وفجأة قال ولد لولد يجريان من عمق الحارة إلى بائع الكسكسي:

ـ أخذت مصروفك يا عوض..

قال الولد الآخر:

ـ لا أخذت آخر الأسبوع يا أهبل، تعال أعزمك على الكسكسي فاليوم الأحد، يوم أجازة يا زكي ونذهب إلى روض الفرج، ونركب المركب وفي آخر النهار نذهب إلى سينما رمسيس.

قال الولد الآخر:

ـ أنا أمس، يوم السبت ذهبت إلى سينما أولمبيا، يا ولداه، الشجيع وأبو أسكندر والبنت، والهنود، والبقر.. ويا سلام..

إذن فاليوم الأحد ـ وأمس كان السبت، وهو قد تأخر يوماً كاملاً عن موعد العودة من الأجازة.. وتذكر جدله مع أبيه وأمه حول بنت

شيخ البلد، وقرفه، ونومه، وتعاسته، ثم العودة إلى القاهرة ـ ضاع اليوم فى جدل لا معنى له ولا طائل من ورائه، فلا هو سيتزوج بنت شيخ البلد، ولا هى تصلح له، ولا أبوه يستطيع أن يرغمه على شيء.. فهو منذ سنوات طويلة، أى منذ تعيينه فى القاهرة، وهو الذى يرسل إلى أبيه إعانة شهرية، له وللبنات وللولد الصغير.. وهذه الإعانة الشهرية تأكل معظم مرتبه، وتجعله هكذا يعيش من شهر إلى شهر، وهو فى خوف من نهاية كل شهر، وفى تطلع واجف إلى بداية كل شهر.

قال الولد للولد:

ـ البنت أمس فى السينما خطفها اللصوص، وهربوا فوق خيولهم، فماذا فعل البطل.. أبو اسكندر؟

قال الولد للولد:

ـ نذهب إلى سينما رمسيس لنعرف كيف أنقذ أبو اسكندر البنت من زعيم العصابة سنذهب فى الحفلة الصباحية.

قال الولد للولد:

ـ لا يا عبيط، نذهب إلى حفلة ستة، ونقضى كل اليوم فى القناطر، وغداً تبدأ الحلقات الجديدة فنزوغ ونراها.

قال الولد للولد:

ـ يا سلام، كلامك تمام ـ الآن نأكل الكسكسى، وبعدها إلى عين الصيرة لنستحم.

قال الولد للولد:

ـ بل إلى القناطر.

قال الولد للولد:

ـ عين الصيرة وحمام السباحة أولاً ثم القناطر بعد هذا، يا عم.. ماذا وراءنا، اليوم أجازة.. هذا هو الأحد..

الأحد.. نسيت أنت أنه الأحد، وأن الأحد يحمل سر الصمت فى الحارة التى لا تعرف الصمت، سر إغلاق كل الحوانيت التى كانت فى مثل هذه الساعة تشتعل حياة وصخبا، وتعليقات ساخرة عليه حين كان ينزل من المنزل ببذلته وكرافتته وطربوشه الأحمر المستوى فوق رأسه..

وأفاق إلى نفسه، وعدل طربوشه، وسوى كرافتته، وأسرع يهرول يعبر الحارة حتى مدخلها ووقف فى وقار يتأمل الشارع الكبير وهذا الشارع اسمه ياسيد الشارع الجديد، حيث يسير الترام النايلون آخر صيحات الترام فى القاهرة.. ترام مغلق، ومقاعده لا تظهر أثناء سيره.. ولا يثب عليها بائع أو متطفل.

وعند محطة الترام المتجه إلى العتبة كانت تقف تنتظر فى صمت.. وأسرع يهرول دون أن يدرى إذ اقترب الترام من المحطة، وكان يلهث حين قفز إلى العربة الأخيرة، وحين مرت هذه العربة بالمحطة وجدها خالية، إذن ركبت درية العربة الأولى من الترام، وتنهد فى ارتياح.. ثم تذكر فجأة أن المفروض أن يركب الترام فى الاتجاه

العكسى، نحو العباسية، لا نحو العتبة وتردد.. ماذا يفعل؟ هل ينزل من الترام فى المحطة القادمة ليركب الترام العائد إلى العباسية ويذهب إلى مكتبه؟ أم يظل فى هذا الترام إلى أن يرى أين تنزل درية؟ ولكن ظل واقفاً وفى كل محطة يقف فيها الترام كان يتطلع فى لهفة إلى العربة الأولى، ينزل منها من ينزل ويصعد إليها من يصعد.. ولا درية.. وعند العتبة حتى نظر فى حذر رآها، نزلت درية، وضفيرتها الكثة تتلاعب فوق ظهرها، وجسدها الناضج يهتز كله، تماماً كما شاهده مرات فى نافذته وهو يطفئ النور، وينظر خلف الشيش.. ونزل هو دون أن يحس فى نفس المحطة، وتلفت حوله ـ كانت تسبقه بخطوات، تركت الميدان واتجهت إلى شارع البوستة، لا شىء هناك إلا الهدوء، ولا أحد يسير فى الشارع، وأسرع يجرى لاهثا ليلحق بها.. وكانت تسير فى الشارع تهز ضفيرتها وخصرها فى رتابة وانتظام. وتمالك نفسه.. فلا يحب أن يعرف أحد أنه يتعقب فتاة فى الشارع، هذا عيب.. وكانت تسير أمامه وهو بعدها بمسافة. ولا أحد فى الشارع الهادئ الساكن هذا الصباح. وأسرع حتى كاد يلحق بها.. ثم سار وقلبه يدق فى عنف، وأنفاسه تلهث حتى حاذاها، وسار إلى جوارها خطوات، وهى تسير بخطواتها الثابتة، وضفيرتها الكثة التى تهتز وراءها، وكأنها لا تراه ـ استجمع كل شجاعة وقال:

ـ يا درية..

وكأن بركانا انفجر.. التفتت إليه فى عنف ونظرت إليه فى غضب، وقالت:

- تعاكس جيرانك فى الشارع يا أفندى؟

وأحس أن دشا باردا قد غسله كله.. فوقف مكانه والعرق ينداح من كل جزء في جسده وريقه قد جف، وركبه اصطكت، وهو فى مكانه لا يريم

وهى تسير مهتزة والضفيرة تهتز، وكل جسدها يهتز، وهو فى مكانه كالصنم، ماذا يفعل ضاعت القرية وضاعت سلسلة أولاد البلد، وهو كلب، أهان كل شىء، وأضاع كل شىء.

ولكنها وقفت، ترتب شعرها، وتنظر حولها ثم تنظر وراءها إليه.

كان ميدان الأوبرا أمامه تماما، ظهر تمثال أبو أصبع راكبا حصانه، والدنيا بدأت ترسل ريحا يحمل بردا خفيفا لاذعا، وهى تلم ثوبها حول جسدها وتقف، وأسرع لاهثا نحوها حتى حاذاها وقال:-

- قصدى شريف والله.

توقفت ونظرت إليه، واهتزت الضفيرة حتى غدت فوق صدرها، وقالت:

- من قصده شريف يسأل الأب.. أسأل أبى، وهو يجيبك.

تمالك نفسه وصرخ:

- ولكن أنت ماذا تريدين؟

قالت وهى تتحول عنه:

اسأل أبى.

صرخ قائلا:

ـ أنت بنت الميرد يديه .. لك رأيك.

نظرت نحوه بعينيها الواسعتين وقالت:

ـ عيب أن يتعقب ابن البلد جارته، اسأل أبى وهو يجيبك ـ وابعد عنى ـ واتركنى فى حالى.

ووقف ذاهلا لا يعرف ماذا يقول، وحين حاول أن يتابعها فى سيرها، وقفت فى حزم وقالت فى عنف:

ـ عيب يا أستاذ، احترم نفسك.

وتسمر فى مكانه إلى أن مضت.

وقال عبدالحسيب أفندى:

ـ يا أفندى أنت تأخرت وهذا اليوم يحسب عليك، ليس هناك مكان لأفندى يحضر فى العاشرة، موعدنا الثامنة يا أفندى هل تفهم.

قال:

ـ ولكن الظروف، وكنت فى القرية وعدت اليوم.. و..

صاح الباشكاتب فى حزم:

ـ يا أفندى أنت اليوم فى غياب، ويحسب لك من الأجازة العارضة، تفضل، غدا تأتى فى موعدك الرسمى.

وخرج وركب الترام حتى العتبة.. عاد إلى الميدان. عاد إلى البوسته، عاد إلى الشارع الهادئ ، وجعل يتأمل ما حوله، ويتذكر، كيف أهانته ، وعدل الطربوش، ومد يديه يعيد رباط الكرافت إلى مكانها. ونظر أمامه إلى تمثال إبراهيم باشا فى ميدان الأوبرا وأحس أن الفارس يترك حصانه، ويميل فجأة فوق صدره، ثم ينظر نحوه ويقول:

- يا ولد، خذ البنت بسيفك.

ولم يكن له سيف، وحين عاد ينظر من جديد، كان الفارس مكانه فوق الفرس، وكان هو غارقا فى عرقه الغزير رغم هواء أكتوبر الخفيف الرقيق.

قال أبوه:

- هل لأنك اشتغلت، وأصبحت موظفا تتمرد على ارادتى، قلت بنت شيخ الخفر يعنى بنت شيخ الخفر، فعندها قيراطان، وهى بنت حلوة ومستورة، وشيخ الخفر مقرب من العمدة، ومالك؟ هل الشهادة أدارت رأسك.

قال:

- يا أبى، لا أريد إلا هذه البنت.. وإلا مت..

قالت أمه وهى تتنهد:

- المصراوية عملوا له عملا يا أبا الأولاد.. وهم طمعوا فيه وفى مرتبه ومركزه.. أمرنا لله.. هى العين أصابتنا من بدري.. اتركه وإلا أصابه المرض.

قال:

- يا أبى، وافق وتعال اخطبها لى من أبيها

قال الرجل وهو يتنهد فى استسلام:

- أصبحت أفنديا، وكلامك كلام الأفندية، ورغباتك رغبات الأفندية، ولا تعجبك أى بنت من الكفر أذهب معك وأمرى إلى الله.

قال المعلم فى صالة البيت الواسعة المليئة بالسجاجيد والطنافس:

- شرفتم، وأهلا، وسهلا وأنا أعرف الأفندى منذ سكن فى حارتنا، وهو ابن حلال، وموظف فى غاية الكمال، ولكن ماذا تريدون منى:

قال وهو يتصبب عرقا:

- هذا والدى يا معلم.

قال المعلم:

- أفهم .. عمدة.. من الأرياف أهلا وسهلا، وما هو المطلوب؟

قال وقد ازداد عرقه فوق فوديه وجسده:

- جئنا نطلب يد كريمتكم..

ضحك المعلم. وقال:

- فوقية أم حسنية أم درية؟

قال فى أدب:

- درية يا معلم

ضحك المعلم حتى كاد ليستلقي على قفاه، وتوفز أبوه، وأحس هو أن شيئا يأكل صدره.

وقال المعلم:

- درية؟.. تأخرت يا أفندى فنحن سنحتفل بزواجها من المعلم عليش.

صاح في دهشة وتعاسة:

بائع الكسكسى؟

قال المعلم وهو يضحك، ويربت على كرشه:

- أبدا، الكسكسى لعبة، أما الحقيقة فهو يبيع الكيف بالمئات والألوف.. الحشيش والأفيون، والماكس فورت.. معه ثروة ضخمة وعظيمة، أنا لا أحب ان أعرف مداها.. وهو قد تقدم إلى البنت.

قال في عنف:

- ولكن يا معلم، درية تتزوج بائع الكسكسى، والميرديديه..، والتعليم، والوسط.. و..

صاح المعلم وهو يهز يده في عنف:

- تعرف يا أستاذ، هو يكسب في اليوم باكو كاملا.. ماذا تكسب أنت؟

وصمت وأطرق برأسه وقال:

- مرتبى أربعون جنيها في الشهر.

صاح المعلم:

ـ طظ، هي شمة عند المعلم عليش. أتفهم شمة واحدة.

قال:

ـ وإذن..

صاح المعلم:

ـ مع السلامة يا أستاذ.

قال أبوه:

ـ قلت لك بنت شيخ البلد هي الباقية وهي الأحسن، واترك بنات القاهرة، فقد تغير كل شيء.. والأفندى مثلك لا وزن له..

قال:

ـ لن نعدم حين نعود إلى شيخ البلد عليشا آخر.

قال أبوه في دهشة:

ـ وهل أنت تسخر أم تعرف الحقيقة، بنت شيخ البلد تقدم إليها عبد العال العائد من العراق ومعه المال والدنانير، واشترى أرض عمك عبدالصمد فإن لم تتقدم لها أخذها عبد العال.

ضحك ساخرا وقال:

ـ أتركها لعبد العال ـ فلا أمل لى هناك، كما لم يكن لى مكان هنا.

قال أبوه:

- يا ابني اعقل وكفى ما حدث لنا هنا.

قال:

- وأجنبك ما سيحدث هناك، مرتبى يا عمدة أربعون جنيها، فماذا يساوى هذا من عبدالعال وما جاء به عبدالعال.

أطرق أبوه، وأطرق هو، وانبعث صوت من الراديو آخر الحارة، ثم أطفئت أنوار الحارة.

وظل نور يبص من الشيش فى النافذة المقابلة، وواحدة تعبث بشعرها، لتظهر فى الظل والضوء وهو يرقب، ويصمت ويهمس لأبيه:

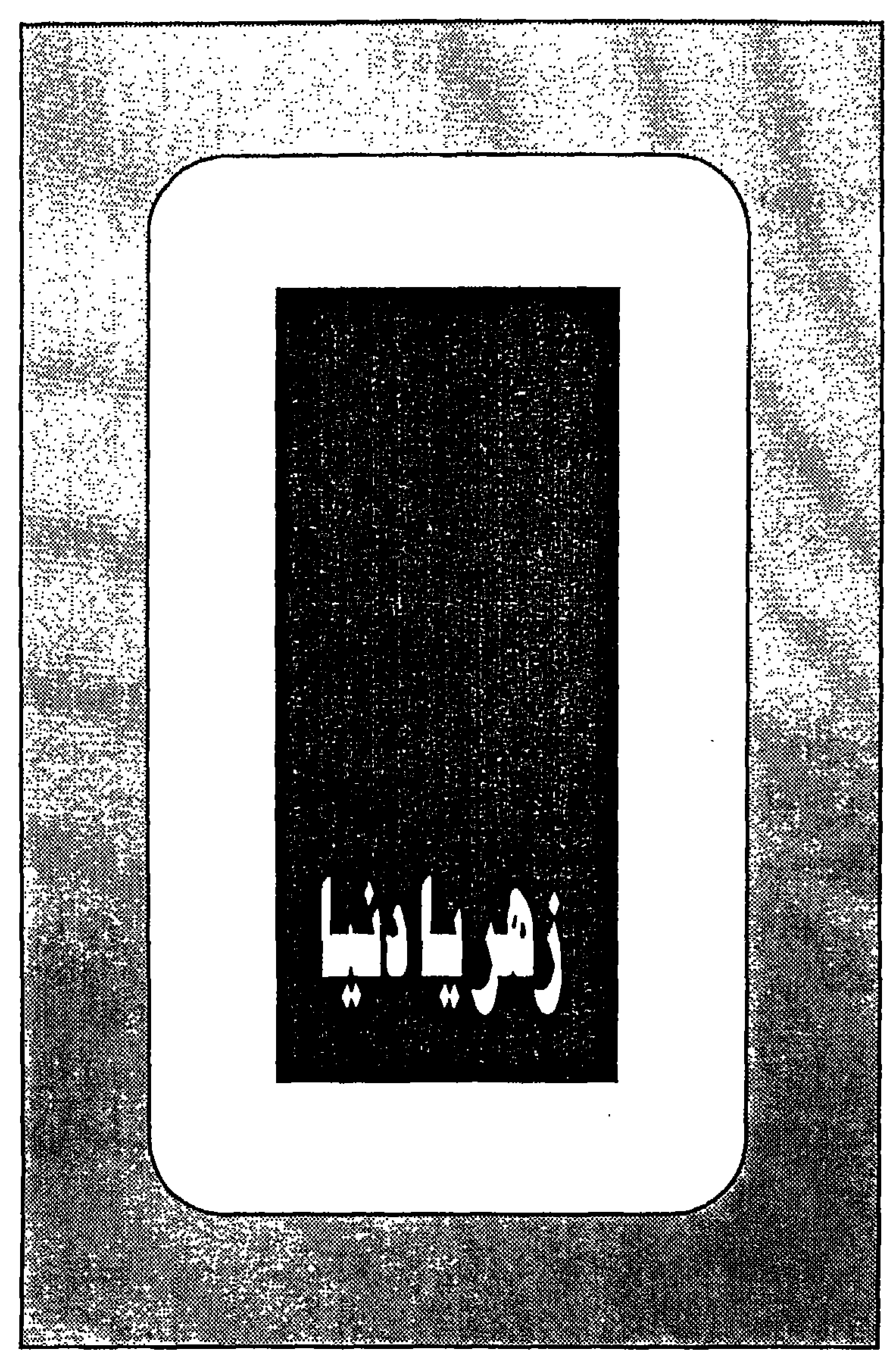
- سقط أبو أصبع فوقى يا أبى، ولا أعرف كيف أرفعه عن صدرى.

قال أبوه:

- وبنت شيخ البلد؟

قال:

- ارفعه عن صدرى يا أبى.


زهر يا دنيا



رمته الوحدة، ورماه القلق، إلى الشارع المظلم البارد الكئيب..

حاول أن يكتب أفكاره فعجز، أوجعته أمعاؤه، وأوجعه رأسه، وتوترت أعصابه، وأحس أنه على وشك التمزق والانهيار، فقرر أن يخرج، رمى الورق والقلم، ودفع المنضدة بقدمه، فاصطدمت بالمقعد الذى اصطدم بالحائط، وهرب الصرصار القريب من حافة المقعد.. ونظر حوله فى يأس، فى قلبه غصة، وهذا العنكبوت الغليظ يمد خيوطه حتى نهاية الحائط يتحداه، ولكنه لا يريد أن يمزق خيوطه، ولا يريد أن يقتله، سيترك له الحجرة، والشقة كلها، ويخرج..

شيء مهم يملأ وجدانه وقلبه، يمزق شيئاً فيه، يجعله يريد أن يبكى، ويمسك الدموع بصعوبة، فلا يجب أن يبكى، وإلا جن، أو كان على باب الجنون.

وتلمس المقعد البعيد عند باب الغرفة حيث معطفه العتيق، فارتداه، وهو يرتجف لم تكن الحجرة الضيقة تمنع البرد عنه، ولكنها

كانت تجلب له برداً من نوع آخر، برداً يهز أعماقه نفسها.. ولهذا ارتدى معطفه بسرعة وقبل أن يتردد، فتح الباب وخرج.

الشارع معتم وكئيب، وأنوار خافتة تلوح بعيدة، ومتتابعة.. والليل قارص البرد.. وجسده كله يرتجف، ويلم المعطف العتيق حول جسده، ويمضى فى عمق الليل فى خط متعثر لا يعرف له غاية محددة.

هو تمرد فجأة على سجن الحجرة فخرج، وأحس أنه خرج من سجن ضيق إلى سجن فسيح ولكنه سجن على كل حال.

خرج يبحث عن قلب يحكى له هم قلبه، عن نفس يناجيها ما بنفسه.. أين يجد هذا القلب..؟ وأين يجد هذه النفس؟ والكل ماتوا من زمن.

الأحبة والأصدقاء.. مشى فى جنازاتهم جميعاً، وتقبل العزاء فيهم واحداً إثر الآخر، وهم مضوا بضحكاتهم، وأحلامهم، وآلامهم، وفهمهم له.. ولآلامه الغامضة المكبوتة المهمومة هم مضوا.. وتركوه.

خونة.

عرفوا متى يموتون.. غابوا وهم فى قلوب الكثيرين، وفى الذاكرة.. وهو وحده يسير إلى النسيان.. والضعف والوحدة.. وإنه لا يجد منهم من يحكى له المرارة التى تملأ قلبه.. الكلمة التى تخونه فلا يجدها والحرف الذى يسقط وسط الكلمة فتبهت وتفقد معناها، ولا يكتبها. ويحبط، ويترك القلم.. ويكاد يبكى، فيخرج مندفعاً كما خرج.

والمعطف لا يحجب برداً، يضع يديه فى جيوبه ولكنه كله يهتز.. وأضواء الشارع خافتة ومتباعدة والميدان الذى يتجه نحوه بعيد، بعيد.

وتعثرت قدماه فى حفر فى الطريق، وطوب، وقاذورات، ومضى حذراً يرتجف، وهو يقترب خطوة، خطوة من الميدان، وقهوته الكبيرة التى عاش فيها عمراً لا ينسى، وقضى فيها أياماً لا تمحى من ذاكرته أبداً.

صاح صلاح:

ـ مسكتك فى اليك يا ولد.. اقفل الطاولة واسمع هذه القصيدة ولا تتنفس..

ويسمع وينسى أحلامه الصغيرة، وسط هموم وأحلام شاعر كبير، ينسج من الكلمة والكتابة والتعاسة حلماً غير مستحيل..

ويجوعان.. ويأكلان، ويقول أحدهما شعراً، ويسمع الآخر، ثم يتفقان على معنى للشعر، ويختلفان حول معنى آخر، ويضحكان، ويصخبان، وينوحان معاً.

ويسكت كل شىء، وينظر كل منهما إلى الآخر نظرة باهتة.. ويقول صلاح:

ـ عشرة طاولة.

ويهز رأسه، ويمدان الطاولة أمامهما من جديد، ويتحرك الزهر من جديد بينه وبين الصديق وتنقضى ليلة كلها انفعال، ومعنى، وجدل، ويقول صلاح:

ـ اكتب لى، فلن أراك غداً، عندى عمل فى المدرسة، ثم دروس خصوصية..

ويضحك صلاح وهو يقول:

ـ يا ولد.. غداً يوم جديد.

ويقترب من المقهى وسط الميدان، بأنواره الساطعة ويقترب.

هذه الأنوار، ماذا تعنى له.. فراغ منير.. وأعجبته العبارة فرددها هامساً، نعم فراغ منير يا ولد.

أما النور فقد ضاع.. يا دفء القلب الذى ضاع.

وتقدم مترنحاً نحو أضواء القهوة.. فهى آخر الأمر بؤرة جذب له.

تحركت قدماه.. وإلى قهوة الحرية جلس.. ونظر حوله فى قلق لم يأت أحد يعرفه إلى القهوة.. والليل قارص البرد، والوحده تعيسة.. وراح فى الزمان الذاهب والزمان الذى يحياه..

ومضى يصفق ليستدعى الجرسون، وحين جاء الجرسون، قال:

ـ واحد شاى.

ذهب صلاح، بل ذهب الكل.. وكل الموجودين هنا أغراب، وكل منضدة مشغولة بلاعبى النرد، والضوميدو، والكوتشينة، فى حماس مجنون، يجعل من كل اللاعبين كتلة بشرية واحدة تتفاعل، وتتناغم، ثم تتكامل عند اللعبة، وهو يرقب ولا يلعب، يشاهد فقط من بعيد.. وصاح واحد أمامه:

ـ خانة اليك يا كلب.. انتهى الدور..

هو رجل نوبى منفعل، يصرخ وهو يضع القشاط فى خانة اليك، أمامه رجل وقور، واضح أنه جريجى متوفز العينين، محمر الوجه، عصبى الحركة وقال، وهو يمد يده يجمع أقشطته السوداء:

ـ كسبت هذا الدور ياهلال، هل تكمل؟

وقال هلال:

ـ عشرة جنيهات أخرى يا استافرو.

ودهش، ألا يزال فى القاهرة، هلال، واستافرو.. هذا شىء انقرض منذ الخمسينات والستينات، ولكنه الواقع أمامه حى ومعاش، ولكن هلالاً، واستافرو ملأ الشيب فوديهما، وامتد كرشاهما أمامهما، وتهشمت الأسنان.. وقال استافرو:

ـ خمسة فقط إن أحببت أن تكمل الدور..

صاح هلال فى اندفاع وحماس، وهو يتوفز فوق مقعده:

ـ خمسة، خمسة، المهم أن أعلمك أصول اللعبة.. يا ولد.. أفهمت؟

وقطع التوتر صوت الجرسون العجوز يتحرك نحوهم فى بطء، وهو مثقل بما يحمل، وقال صائحاً:

ـ شيشة حمى، وثلاثة كونياك، وواحد قهوة، وكولا، وواحد بيرة، وارفعوا أيديكم عن المناضد الجانبية يا بهوات..

ومضى في نشاط وحماس، يضع أمام كل واحد ما طلبه، يحضر طاولات صغيرة من الجنب ويجر مقاعد من هنا وهناك، وعند كل واحد تحلق حول اللاعبين، وضع طلبه أمامه وهو يلهث، والعرق ينداح عند جبهته رغم البرد الشديد خارج القهوة.. وإلى جواره على منضدة منعزلة يجلس الرجل الوسيم، يحرك قلمه الرصاص فوق الورق بانتظام وثبات، لابد أنه يكتب شيئاً هاماً يستغرقه كل هذا الاستغراق.. كان الرجل يشعل السيجارة من السيجارة، ما إن تنطفئ السيجارة في يده، حتى يرفع رأسه متأملاً ما كتب، ثم يشعل السيجارة الجديدة، في توفز المبدع، ثم يشرب جزءاً من قدح القهوة أمامه، وينصرف إلى الكتابة من جديد.. ثم يستغرق في الكتابة بقلمه الرصاص فوق ورقه الأبيض حتى ينسى كل شيء.. عالم القهوة، والناس، والنداءات، والضجة، ينسى كل شيء.. فهو مستغرق فيما يكتب كل الاستغراق.

والتفت إلى ما حوله مبعداً نظراته عنه حتى لا يؤذيه بمراقبته الملحة.. ودخل القهوة ثلاثة واحد بعصا طويلة يتوكأ عليها، واثنان يسندانه، إلى حيث المنضدة الخالية ـ وأجهد ذاكرته.. هذا الرجل رآه من قبل ـ كان يدخل القهوة صاخباً متحدياً كل لاعبي الشطرنج.. وكانوا يخافونه ويجلسون أمامه في صمت، ساعات، وساعات، وهو المنتصر أبداً ودائماً.. كان يهتز وهو يتقدم إلى المنضدة، وهما يسندانه في صمت ورعاية، وهو يتكئ على عصاه.. حتى يصل إلى المقعد عند المائدة الخالية، ثم يجلسانه في رعاية واهتمام.. وهو يقول في غير اكتراث، وهو يسند عصاه إلى جوار المنضدة:

ـ أما يزالون يلعبون الشطرنج دون وجودى؟

قال صديقه:

ـ الشطرنج فى الناحية الأخرى بعيدا عنا.

قال وهو يحرك العصا الغليظة فى يده:

ـ كنت أحب أن أراقبهم، وأشاهد لعبهم

ضحك صديقه، وربت على كتفه وهويقول:

ـ ستلعب الشطرنج بعد حين وستغلبهم كما تعودت.. ولكن ليس الآن..

استقر فى جلسته وسكن.. كانت عينه اليسرى ضعيفة، واضح أنها فى غير استواء مع عينه اليمنى.. وكان فمه يرتجف.. وحين رفع زجاجة المياه الغازية إلى فمه، انحنى فمه، وارتجفت شفتاه، وعانى صعوبة حتى أمسكت يداه بالزجاجة، وصوبها تماما إلى شفتيه.. وحين أطبقت شفتاه على الزجاجة فى إصرار، كان هذا إنجازا صحيا متميزا.

وحاول أن يحول عينيه عنه وعن العصا، وعن أصدقائه، فهو لا يريد أن يحس أحد أنه يتطفل على عائد مريض، يقاوم فى بسالة، ليظل له مقعده القديم فى القهوة القديمة، وهو لا يريد ان يرثى لأحد وقال واحد:

ـ أغلقوا هذا الباب، إنه يدخل بردا كالرصاص.

وقال الجرسون:

- هذا باب الدخول يا بك.

ثم تنهد، وهو يضع آخر كئوس البراندى، وقال:

- سأغلق نصف فتحة الباب.

لم يلتفت أحد لكلمات الجرسون المرهقة، وصاح استافرو:

- الطاولة أمامنا، والزهر حكمنا.. وأنت كسبت عشرة. وماذا يعنى هذا..؟ تعال فأنا معك إلى آخر المطاف.

هز هلال الزهر في يده، بعد أن عدل أقشطته، ورمى زهره ونظر إليه وصرخ:

- قلت لك يا استافرو أنا الملك.

وهب من تحلقوا حول المنضدة وقوفا يرقبون الزهر، واحتسى أحدهم كأسه، ورفع أحدهم غطاء زجاجة الكوكا ووضعها على فمه، بينما مد أحدهم يده إلى فمه بمبسم الشيشة وهو يهز رأسه فى إعجاب، وقال آخرهم وهو يرشف من قدح قهوة رشفة طويلة روية:

- يا ولد.. هذه هى الرمية والا فلا..

وأخذ الجرسون المتعب يجمع بقايا من هنا.. وفوارغ من هناك، وهو ينظر إليهم ويقول:

- الطلبات على حساب من يابهوات؟

صاح هلال زهوا:

- الطلبات على أنا ياأحمد. الغالب يدفع كل الطلبات..

قال فى صوت متعب:

- والشيشة؟

انتفض هلال قائلا:

- لا، الشيشة على حساب من طلبها.

والتفت حوله بوجهه الأسمر الباسم وهو يقول:

- تمام يا جماعة.

قال صاحب الشيشة:

- تمام يا أستاذ هلال، والشيشة خارج الطلبات.

وتحلقت مجموعة من الوجوه حول الطاولة، حتى حجبت أجسادهم عن ناظره اللاعبين والطاولة والزهر والأقشطة.. وأحس بالملل وعاد ينظر من جديد إلى الرجل الذى يكتب.

كان يكتب فى اصرار واستغراق وأنهى صفحة، ثم أشعل سيجارة، وتناول رشفة من قدح القهوة أمامه وتلفت حوله ينظر إلى القهوة كلها.. ثم عاد ينغمس فى الكتابة من جديد. وجه نبيل، وأنف صاعدة، وفى عينيه تأمل، ثم هو يكتب، ويكتب.. قلم رصاص فى يده، وأوراق عديدة أمامه، يملؤها بالكتابة، ورقة إثر ورقة، والورقة المنتهية، تنضم

إلى مثيلاتها وهو يستمر فى الكتابة بعد أن يفكر، ويتأمل ويضيف، ثم يعود يكتب من جديد، ثم يشرب فى قدح القهوة، ويرفع رأسه يتأمل العالم من حوله، ثم يرفع القلم فى يده ويمضي يكتب فى إصرار عجيب فى الورق أمامه وكأن وحيه من الكلمات ممتد لا ينقطع.

وحرك قدميه فى سأم، وأمامه سار عبدالعليم صاحب صندوق طلاء الأحذية، فى سأم ومرارة وكان ينظر حوله فى يأس، فلا أحد يريد أن يطلى حذاءه.. وثمن طلاء الحذاء قد علا كثيرا وارتفع. حين يصل إلى زبون قديم، يشيح هذا برأسه، فيستمر عبدالعليم فى سيره فى يأس وهو يضرب فرشاته بالصندوق الخشبى فى احتجاج صامت حزين.. وسمع صوت الرجل صاحب العصا يقول:

- أنا أتحدى أيِ واحد فى القهوة فى الشطرنج، لماذا لا يحاول أحد أن يلاعبنى.

قال صديقه:

- أبدا كل صناديق الشطرنج محجوزة، والناس يلعبون، ولابد أن ننتظر حتى يخلو صندوق منهم لنا. صاح فى عصبية:

- أين أحمد- استدع الجرسون، وهو سيحضر صندوقا لى، فأنا هنا ملك الشطرنج.

قال صاحبه الآخر:

- معلوم، معلوم، ولكن الطبيب حذر.

فصاح فى ضيق:

- الطبيب شىء، والشطرنج شىء آخر..

قال صاحبه الأول:

- هو منعك من أى عمل ذهنى، كما طلب منك أن تبتعد عن كل ما يثير أعصابك.

ضحك صاحبه الثانى ضحكة مفتعلة وقال:

- وأنت تلعب الشطرنج بأعصابك وعقلك معا.

والتوى وجه الرجل، وظهر الضعف فى عينه والتهدل فى فكه، وارتعشت يده.. وسئم ما يرى وقد امتلأ قلبه إشفاقا على ملك الشطرنج السابق، وأشاح بوجهه عن المائدة ومن فيها، وإلى جواره تماما صاح زكى:

- كرافتات وشرابات وأمواس، وكل شىء مستورد.. طلباتكم يا بهوات.

وابتسم ابتسامته الصفراء، ومضى يضع الشنطة أمام المنضدة، ويخرج ما عنده يعرضه، وهو يتطفل على اللاعبين واللعبة..

ويتذكر زكى، زمان كان يمر بشنطته على كل المقاهى والبارات، وهو ظريف ومحدث، ولبق له مساومات، وله معارك، وحكايات مع هذا وذاك، ثم تغيرت الدنيا، وانتهى الزمن، وعاد إلى المقهى يحمل، شنطته هو هو لم يتغير، وإن كانت الدنيا حوله قد تغيرت وحالت.. وذهب الناس وهو هو، يتحرك بين المناضد، فى البارات والمقاهى، هو

وحده وسط صورة باهتة لا معنى له ـ واخفض عينيه، واخفض زكى عينيه، كأن أحدا منهما لا يعرف الآخر وكأن أحدهما مجرد زبون وكأن الآخر مجرد بائع .. جمع زكى شنطته، ثم مر وعبر فى صمت. حتى دون أن ينظر إليه مرة أخرى ـ شىء مر وعبر..

ونظر إلى المائدة الأخرى إلى يساره .. أربعة يجلسون فى غضب وقلق، وكل منهم ينظر إلى الآخر فى ترقب وصمت ـ وكان حول الأربعة أربعة آخرون، يشعلون السجائر، ويركزون النظر إلى المائدة فى ترقب، وينفث أحدهم سيجارته، ويكاد يهم بكلام، ثم يصمت، والآخر يرفع يده وكأنه يهم بشىء، ثم يصمت ويتراجع ولا يقول شيئا .. كانوا يلعبون الضومينو، وكان من الواضح أن المنضدة منقسمة إلى فريقين، كل واحد له زميل، وكل زميلين ضد الآخرين فى معركة ذكاء وترقب وصمت ـ ومن تحلق حولهم لا يكادون يلتقطون أنفاسهم ترقبا واحتسابا ومشاركة!. وشحبت وجوه، واصفرت وجوه، وصاح واحد من المتحلقين فى انفعال وعصبية، وكأنه اكتشف سرا هاما:

ـ لقد طبخها مع زميله.

وصاح آخر فى انفعال موجها كلامه إلى الفريق الآخر:

ـ استيقظ يا حدق، فهذه هى الضومينو، ان لم تستيقظ أكلها، وضاعت فلوسك.

وتصايح الفريقان، وانضم إلى المتصايحين مجموعة ممن كانوا يرقبون لعب الطاولة ، ثم انضم إليهم الجرسون وماسح الأحذية،

وأصبحت المسألة غاغة لا حدود لها.. وأحس بالضجر رغم صخب الضجة وعنفها، فهي كلها زوبعة في فنجان، هو لا يستطيع أن يرى من مكانه ما يحدث لا على اليمين حيث مائدة النرد، ولا على الشمال حيث مائدة الضومينو.. كانت المناكب والأكتاف المتكأكئة هنا وهناك، تحجب عنه كل شيء.. وعاد بعينيه إلى الرجل يرفع صفحة امتلأت سطورها ليضع صفحة ثانية أمامه، ويأخذ نفسا عميقا من سيجارته، ثم يمسك بالقلم ليكتب بسرعة عجيبة، كأنه لا يعاني من البحث عن أفكاره، أو كأنه يكتب شيئا قد حفظه تماما ووعاه، فلا يكلفه جهدا في تسطيره على الورق.. هل يكتب شعرا، ولكن للشعر نظامه، وهذا الرجل لا يكتب بأي نظام.. ربما يكتب مقالا، ولكن المقال فقرات، وهذا كل سطوره مليئة بالكلمات بلا وقفة واحدة.. ربما كان الأمر قصة أو رواية، ولكن أليست في القصة جمل الحوار التي تبدأ وحدها من أول السطر.

واستبد به الفضول، وهو يتابع الحركة النشطة للقلم في يد الرجل.. ودفع بعلبة السجائر لتسقط قريبا من مائدة الرجل الذي يكتب، وقام في تثاقل ومضى إلى مائدة الرجل وانحنى يلتقط علبة السجائر وهو ينظر إلى الورقة واليد النشطة بالقلم فوقها، وتجمد في انحنائه وقد كادت عيناه تبرزان من محجريهما، فالرجل يرسم خطوطا ملتوية، عرجاء من أول السطر إلى آخره، ثم ينتقل إلى السطر الذي يليه فيفعل به ما فعله بالسطر الذي قبله.. ورفع الرجل رأسه ونظر إليه، فابتسم في

بلاهة والتقط علبة سجائره، وعاد متثاقلا إلى مقعده.. وابتسم لنفسه وهو يشعل سيجارته، فهذا بالفعل أعقل الكتاب، فالكتابة متعة، وهو يحصل عليها، والكتابة عناء، وهو يدفعه عنه بألا يكتب ما يتعبه .. وما مصير كل الكتابة آخر الأمر؟ بالفعل هذا أعقل من أمسك قلما ليكتب.. وأفاق على كلمات الجرسون الذى قال:

- قهوة أخرى أم شاياً..؟

وأحس أنه استنفد ما يحتمله المكان من ضيافة له، فلا هو يلعب بالعشرات والخمسات، ولا هو يشارك من الخارج بالرهان، هو فقط يشرب قدح الشاى ويجلس يرقب اللاعبين كالساذج العبيط - ونظر فى عينى الجرسون، وكان ساقيا قديما، عرفه فى زمن مضى، وفى هدوء قال له:

- هل المشروب بالساعة يا أحمد؟

بسمل أحمد وحوقل، ورفع يده وأنزلها ، ومر على كرشه بيده وقال:

- استغفر الله يابك.. المكان مكانك، فأنت هنا حتى قبل أن أعمل فى هذا المكان، يا سلام يابك اجلس كما تشاء، وحتى الشاى الذى أخذته علىّ أنا، فأفضالك لا أنساها ابداً.

قال له حين اقترب منه يأخذ النقود التى أخرجها من المحفظة:

- أنت تذكرنى إذن يا عم أحمد؟

قال:

ـ كنت نوارتنا يابك ـ لقد سألونى عنك كثيرا، وأنت لم تأت حتى كف الناس عن السؤال ـ ولكن لا تؤاخذنى يابك ـ الزمن تقدم بى حتى نسيت، أذكر الوجه والجلسة، والطلب شاى أو القهوة على الريحة، تمام ـ ولكن الاسم، لا تؤاخذنى فقد كنت أنت وأصحابك تملؤون القهوة ضحكا وصخبا.. ولكنى لم أعد أرى أحدا منهم..

ضحك وقال:

ـ كان زمان يا أحمد قل الكل ترك الدنيا وذهب.

تنهد الجرسون، ثم مضى.. وبعد حين جاء زكى وهو يصيح فى حماس زائف، وعيناه تدوران فى حيرة:

ـ أهلا يابك، من زمان لم نرك ـ أين كنت؟ قالوا سجنت، وقالوا سافرت، وقالوا مت ـ ولم أصدق أى قول منها كلها.

قال:

ـ يا زكى.. أنت مررت منذ حين ولم تعرفنى.

قال زكى، وهو يريح شنطته على المنضدة أمامه ويعبث بما فيها:

العتب على النظر يابك، ومن لا يعرفك يابك.. يا سلام ـ أيام ورجال

ثم حط شنطته على المنضدة ومضى يفتحها كالزمان الماضى ويعبث فيها وهو يقول:

- لم تتغير يابك

قال:

- ولكنه الزمن تغير يا زكى.. هل تذكر أحاديث زمان وناس زمان.

ضحك زكى وتلفت حوله، ويده تتحرك داخل الحقيبة، وقال:

- مناديل، شرابات، أمواس وكريم للحلاقة.

قال:

- لم تجبنى يا زكى

هز زكى رأسه، وأخرج أشياء من الحقيبة، ثم أعادها إليها، وأغلق الحقيبة، وحول عينيه فى نظرة باهتة تجول فى القهوة، وهو يقول:

- معجون أسنان، ومسواك سنة عن رسول الله، كولونيا وماء ورد عطر الجنة.

ثم حمل الحقيبة، ورفع يده بتحية صامتة حزينة ومضى دون أن ينظر خلفه.

وأفاق مع ضربة فوق الصندوق الخشبى وماسح الأحذية قابع تحت قدميه وهو يقول:

- تمسح يابك؟

ثم أردف فى ضراعة وهو يجذب قدمه إلى الصندوق:

- من زمان لم أمسح حذاءك يابك.

ونظر إلى وجهه العجوز المليء بالأخاديد، وسلم له قدمه وهو يطرق ويهمس:

- ورنيش العمدة يا ريس.

ضحك ماسح الأحذية فى مرارة وهو يمر بفرشاته فوق الحذاء وقال:

- ورنيش العمدة انتهى من عام ستين يابك، هذا ورنيش جديد، وشركة جديدة، ودهان جديد.

قال وهو يحس بمرور الفرشاة فوق حذائه:

- لك حق يا ريس، لابد من طلاء الأحذية بالدهان الجديد.

وصاح عباس:

- سميط وجبنة، بيض وسميط وجبنه.

كان قوامه مايزال فارها، والسبت على رأسه يتحرك مع حركة عنقه، وقد امتلأ بأقراص السميط تتوسط عصوات عند أطراف السبت، ثم أنزل السبت عند مائدة لاعبى الطاولة وهو يقول:

- سميط وجبنة وبيض يا بكوات.

صاح استافرو:

- هات السميط يا عباس، والبيض والجبنه، فأنا جائع.

وصاح هلال:

- آكل أنا البيض ويأكل هو السميط والجبنة..

ورمى الزهر وهو يقفز فوق كرسيه فى توفز، ويصيح:

- هذا هو الزهر التمام.. دش يا جدع.

وأنزل عباس سبته، ومضى يضع السميط والبيض والجبنة، وصاح أحد المتفرجين:

هات سميطا يا عباس ولا تنسى الدقة.

وقال آخر:

- أين الطماطم يا عباس.. الطماطم علاج الكونياك، وهذا الكونياك فى هذه القهوة سبرتو أحمر.

ودق ماسح الأحذية بفرشاته صندوقه الخشبى، فرفع قدما، ووضع أخرى، وأحس بالفرشاة تمر على الحذاء فى قدمه اليسرى، وسمع ماسح الأحذية يتمتم بكلمات غير مفهومة، ولكن نظره كان مثبتا على عباس.. كم لعب به الزمن، ملأ الشيب رأسه ، وتجعدت جبهته، بل تجعد خداه وفى عينه نظرة حزينة باهتة، وهو يضرب البيضة على حافة المنضدة، وبحركته السريعة القديمة يزيل قشر البيضة، ثم يضعها فوق الورقة الصغيرة أمام الزبائن برشاقة ويقول:

- البيض يا بكوات، وهذه هى الدقة

هل الزمن يعيد نفسه، ولا يفقد فارس السميط رشاقته ام أن يديه تهتزان - لا. كل يده ترتجف ، وأصابعه فقدت رشاقتها، حتى صوته غدا أجش صدئاً وهو يقول:

- سميط بيض، جبنة ودقة وطماطم.

وفي عينيه نظرة كالحة وهو ينظر إلى الآكلين كأنه لا يراهم، أو لا يريد أن يراهم. يا عباس .. يا عباس، لكم تغيرت.. وطرق ماسح الأحذية بفرشاته على صندوقه الخشبى فأنزل قدمه بحركة تلقائية، ومد يده إلى جيبه، ونظر إليه متسائلا، وتطلع إليه الرجل وهو يقول:

- كلك نظر يا بك، ربع جنيه.

ووجم.. من قرش إلى ربع جنيه، ووضع يده فى جيبه وأخرج الورقة الملونة الباهتة ووضعها فى اليد الملهوفة الممتدة نحوه.. وسمع استافرو يصيح:

- تقرص على الزهر يا هلال.

وصوت هلال المزهو المنتصر وهو يرد عليه صائحا:

- اخرس يا خواجة، فى اليك يا خواجة، أنت انهزمت يا خواجة، وادفع واسكت..

وقال استافرو فى صوت ملىء بالمرارة:

- والله زمان يا هلال. كان الحريفة يأتون من كل القاهرة ليلاعبوا استافرو، واستافرو دائما يقهرهم.

صاح هلال:

ـ عشرة تانى يا استافرو أم تخرس.

قال استافرو فى صوت متألم:

ـ صحيح ياهلال.. زهر يا دنيا.. جاء الوقت الذى يتنحى استافرو، ليكسب هلال.

صاح هلال بصوت زاهٍ:

ـ العشرة الثالثة بعشرة جنيهات يا استافرو.

قال استافرو:

ـ لا ثالثة ولا رابعة، يكفينى الليلة هذا، وربما كل ليلة ابتداء من هذه الليلة.

ورآه يقوم من مكانه، ويفسح مقعده لغيره ثم ينزوى فى مقعد بعيد.

وهمس لنفسه:

ـ كل اللاعبين أنهوا لعبهم الليلة يا صلاح، ولم أسمع منك قصيدتك الجديدة، ولم أسمع منك شيئا.

وابتسم لنفسه فى سخرية، فليس هناك أحد يسمعه، وصلاح بعيد حيث لا يسمع ولا يقول الشعر.

وتندت عيناه بدموع حبيسة .. والقلب مثقل، وهو رغم كل هذا الوجود حوله وحيد، ونظر حوله إلى الصاخبين اللاهين يلعبون فى انهماك وجدية، وكأن كل الوجود تحول إلى زهر الطاولة ، وحجر الضوميتو. ثم تحرك نحو الباب ليلفحه تيار بارد، يهز جسده كله، فيضم جسده بعضه إلى بعض وهو يرتجف، ويبتلعه برد الليل القارص وهو يهمس لنفسه:

- صحيح .. زهر يا دنيا:

فى عصر اليوم التالى وجد نفسه يدخل القهوة على نفس مائدة اليوم السابق، وتلفت حوله فى دهشة، مازال لاعبو الضوميتو يتحلقون حول مائدة الأمس، وكأنهم لم يغادروها، واستافرو وهلال يتصايحان ويتشاتمان حول الطاولة، وصفق يستدعى أحمد ليطلب قدح القهوة .. ولم يحضر أحمد وإنما الذى جاء كان عم صالح الأسمر.. نظر إليه فى دهشة وقال:

- عم صالح، لم أرك بالأمس

تنهد صالح وقال:

- كنت أخدم على زبائن الداخل يابك حمدا لله على سلامتك.

قال:

- القهوة على الريحة يا عم صالح وأين عم أحمد. هل اليوم يوم راحته

تنهد صالح وقال فى أسى:

ـ اليوم هو يوم راحته، صحيح يابك، من اليوم هو فى راحة كاملة، أراحه الله من هذه الدوخة التى ندوخها بين الزبائن.

نظر إليه فى دهشة وهويقول:

ـ ماذا تعنى يا صالح؟

ـ طفرت دموع على عينى صالح وقال:

ـ أحمد تعيش انت يابك.

سكت واجما، ثم قال بعصبية:

ـ متى:

ـ هذا الصباح يا بك.

ـ ولكن أمس..

قال صالح:

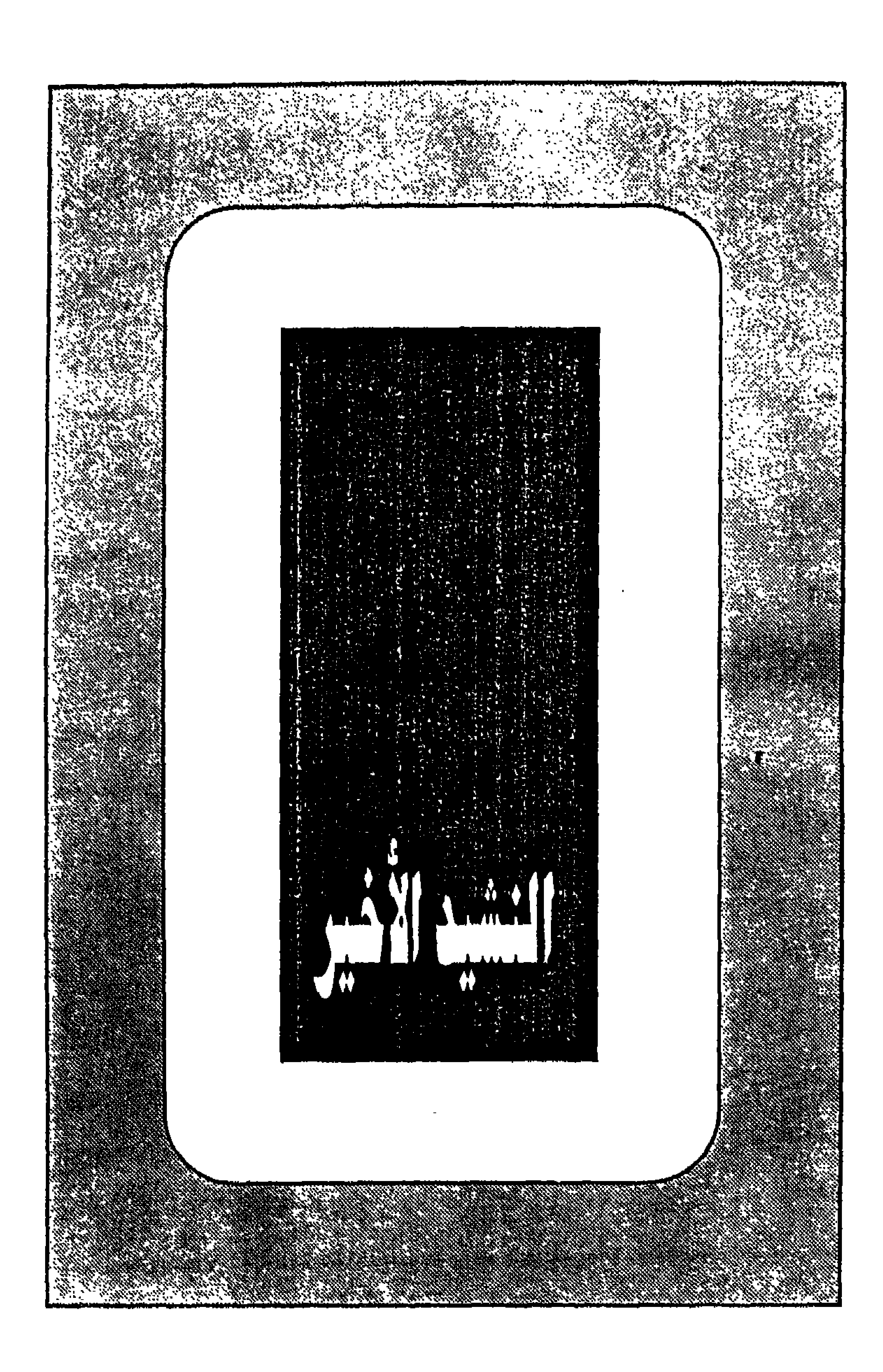
ـ أمس هو الذى أغلق القهوة، وفى الصباح لم يستيقظ. تعب كثيرا وأسلم رأسه للفراش وراح لبارئه.. دنيا يابك.

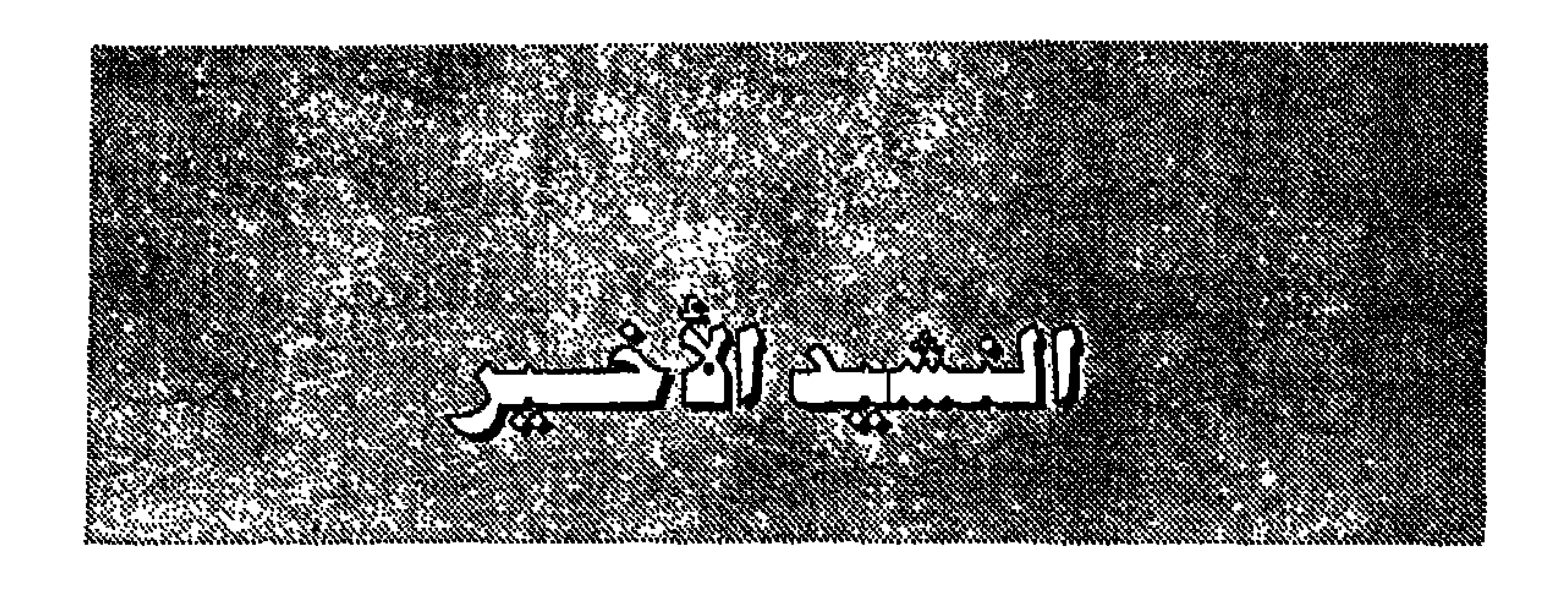
هب واقفا وهو يقول:

ـ لا أريد القهوة يا صالح..

ومضى يترك القهوة وراءه وهو يهمس لنفسه!

ـ صحيح يا صلاح.. زهر يا دنيا.


النشيد الأخير



سأخـــــبرك..

نعم سـأخـبـرك ـ حـتى وأنتم تحـيطون ذراعـى بأيديكم الصلبـة المدربة، وتلصقونها بجنبى حيث يهتز قلبى فى رعب الخوف، ووجل التعاسة، سأخبرك..

نعم سـأخـبـرك.. أننى أحب أرضـى ووطنى، ورائحـة اليـاسـمين وعـبق الـفل، والورد البلدى والريحــان، وأننى ابن هذه الأرض الـسـوداء الطيبة التعسة بك وبأذرعتكم الملفوفه.. القوية العضلات..

سأخـــــبرك..

نعم سأخبرك.. حتى وهذا الضوء المسلط فوق عينى لا أرى ولا أستطيع أن أتحرك من وهجه المخيف، والأسئلة تتلاحق، وأنت منهك، وبعدك واحد ينهك، ثم ثالث، رباط عنقه أحمر قانٍ، وهو يهتز ويسأل، ويده ترسى الصـفعة فوق وجـهى، ويسأل، ويتركنى للضوء المبـهر المسلط..

سـأخـــــبرك..

نعم سأخبرك، أنا ابن الأرض السمراء التعسة، لايزرعـها أحـد الآن، فهى جدباء عجفاء لأنهم جرفوا ما فيها من طمى لكى يصنعوا القمائن، ولأنهم جرفوا من فيها من رجال ليحملوهم إلى البندر، ويصبحون مخبرين وخفراء، ويتلصصون على الناس والكلام، ونجوى ما بين الحوائط ومابين الخوص والقصب..

سأخـــــبرك..

نعم سـأخـبـرك.. أن الحب أبدا لن يموت، وأن النجـوى أبدا لن تموت، وأن البذرة التى توضع فى رحم امرأة، تلد غلاما أسمر الجبهة، صافى الحب للأرض وللأم وللأرض الحلوة الطيبة.

سأخـــــبرك..

حتى وأنت تسمعنى تسجيلك الأبله للصراخ والعذاب والتعاسة، حتى تصبح أعصابى أوتارا مشدودة، حتى يصبح كل شئ فىّ متوفزاً وجلا خائفا مذعورا حتى أنكر نفسى وأنكر أنى موجود، وأننى حى.. وأننى إنسان.. وألطم وجهى، وجبهتى ألصقها بالأرض الصلبة، والدموع تسح من عينى وأنا أصرخ كالمجنون، دون أن يقربنى أحد إلا الصراخ المجنون المسجل والذى ترسله على وسط وحدتى ووقفتى كالعذاب المصلوب.

سأخـــــبرك..

نعم سأخبرك.. أن أمي خضرة، وأختي صابحة، وأن أبى أبو الخير وأن جدى عويس، ملأ الصمت بأغانيه وحكاياته، وأن أبا زيد يحمل سيفا، وأن عنترة يمتطى الأبجر وأن سيف بن ذى يزن يجرى فوق السحاب على ظهر عاقصة، وأن الشاطر حسن سيزف إلى الأميرة، وأن على الزيبق سيظل لص المدينة الذى هو الأمير، والأميرة، وأعوان الأمير والأميرة..

نعم سأخبرك.. وحذاؤك المصمت فوق رقبتى، وأنا لا أستطيع أن أتحرك، فجسدى مسجى كله فوق الأرض، وعينى لاترى إلا بريق النور الساطع أعلى المكان وضحكتك الساخرة تملأ المكان كله، أنت يا من لاوجود له إلا فى قوائم الترقيات والعلاوات والمكافآت التشجيعية، لأنك تضع قدمك السميكة الغبية فوق رقبتى، وتصرخ

أخبرنى يا كلب ـ وأخبرك.. يا من أنت ليس بكلب ـ فالكلب أكرم منك وأكثر شهامة،... وأحن على الإنسان والأحبة والألفة منك، ومن طابورك الأعمى وصيحاتك الصارخة واعتزازك المراهق بالعضلات تحت كم قميصك المحسور والشعرات السوداء تبين من بين فتحتى القميص..

نعم سأخبرك..

سأخبرك.. أن معلمنا الأعمى فى الكُتّاب قال «ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر كلا سوف تعلمون.. ثم كلا سوف تعلمون، كلا لو تعلمون..

وفى أيامنا يعلم أصحاب آخر ما أنتجته التكنولوجيا الحديثة من سائل القهر والتعذيب ما يعلمون.. ياتعس معلمنا الأعمى.. فقد كان أعمى.. لم ير وسائل النفخ والتعليق من الأصابع، والكى عند الأظافر، وحمامات الماء المكهرب عند الأقدام، والضوء الساطع فى العيون، وتراكم ما فى جوفك واحشائك حتى تقعقع أمعاؤك ويكاد ينفجر جوفك، ثم يهون عليك كل شىء حين يعز عليك التبول، وحين لايصبح أى شىء فيك ملكا لك وحدك، ولا خاصا بك وبوجودك وحدك..

وتسألنى.. هل أخبرك..؟

بل سأخبرك.. أن أبى زرع الحنطة فى الأرض السوداء الطيبة، وبعدها زرع البرسيم فزرعة البرسيم تعيد للأرض خصبها من جديد، وجاء بجاموستنا الكسولة ومعها عجلاها النشيطان اللذان يقفزان ويجريان حولها، وما فى المداود من البرسيم، والكسب وعشب الحقل الذى تحبه الجاموسة، ويعشقه البقر..

أنت لاتعرف يا سيدى أن رعى الجاموس والعجول طول النهار لاقيمة له إن لم يكن فى المداود ما يحبون من كسب وأعشاب وبرسيم أخضر حينا، وناشف حينا، حيث لايكون موسم البرسيم الأخضر هو السائد فى يومنا، هل تحب الجاموسة، أم هل تحب البقر؟.. وصرخ.. ولطمنى على وجهى.. وصرخ ومزق ظهرى بحذائه، وصرخ وحطم أضلعى بعصاه.. وقال أخبرنى..

قلــت:

سأخبرك.. نعم سأخبرك..

سأخبرك.. وأنتم تجمعون جسدى فى لفافة، تحوطها السواعد القوية الفتية المدربة وتدفعها السيقان المفتولة العضل إلى أمام، دائما إلى أمام، دائما إلى أمام.. حيث أنا أمام المحقق الذى يتظاهر أنه لايرى ولايعرف ولايلاحظ، وأنه برىء من كل شىء إلا الأسئلة.. وحين يسألها؟ ويدون كاتبه الإجابات، يستريح ويزداد وجهه احمرارا وثقة، والوجوه الشاحبة أمامه تزداد عرقا وتعبا وتعاسة، وهو لايرى، ثم يغلق المحضر ويقول، إلى الغد نكمل التحقيق ثم يمضى فى رقة.. وراءه زوجة وأحلام ليلة، وربما أصدقاء وأحلام سهرة، وربما شبح ترقية وأحلام صعود.. وتعود السواعد المفتولة تدفع فى عنف وتعود السيقان الفتية تضرب فى صمت، ونعود نسير فى طابور ملعون، وقد اتجهت بقايانا فى داخل بقايانا لطول الزمن المرصود.. وتؤلمنا بقايانا، ولا أحد يهتم، يعرفون أن هذه البقايا تؤلم، ويتركونها لتؤلم.. فماذا لو أننا انفجرنا الما أو تعسا ألما؟ أو حتى تحاشينا الألم بالصبر والابتسام.؟ فماذا يستطيع الإنسان من صبر أو ابتسام أمام مثل هذا الألم.. متعة هى عند أصحاب الابتسامات الجاهزة، والكلمات المنتقاه، أن نعيش فى عفننا، وأن نتنفس داخل هذا العفن، وأن نظل نعيشه ليحطم وجودنا الإنسانى نفسه.. وأن نركع حتى يسمح لنا أن نتخلص منه.. وأن ننظر فى ابتهال إلى الوجوه المليئة بالصحة والشباب، المليئة بهذا اللون الأسمر المشوب بالحمرة، والشفاة مليئة مليئة، والعيون مزججة، وكأن الأجفان وهى تنطبق ملونة رهيفة.. والأصوات نفسها رقيقة رقيقة..

ومع هذا كله نترك فى تعاساتنا، ويصيح صوت أمر..

ـ لابد أن تخبرنى..

وأهمس فى خضوع وضياع

ـ سأخـــبرك..

وعم تريد أن أخبرك؟

هل تريد منى أن أخبرك أن ابن عمى سباك يغير الجلدة بعشرة جنيهات، ويضحك والماء يتدفق من الوصلة بين جزئين من الماسورة، ويقول:

ـ يا بك هذه الماسورة، وهذه الوصلة، وهذا كله يتكلف أكثر من ثمانين جنيها، وإن كنت تريد اللحام فأنه يعود إلى سابق عهده..

ـ ماذا تريد منى أن أخبرك؟

عن ابن خالتى، ألا تعرفه هو طبيب كبير، بدأ فى حينا، يبحث عن المرضى بلا أجر ثم وضع أجرا رمزيا ـ عشرة قروش للكشف يااللإنسانية.. ألا تعرف هو الآن يكشف على المريض الواحد بأربعين جنيها، وينتظر المرضى حتى الفجر حتى يأذن لهم بالدخول عليه والكشف، وهو متعب ربما كان مجهدا ولكنه الطبيب، أتفهم يا سيد..

أنت سألـتنى..

وأنا لابد أن أخبرك. ولكى أخبرك، لابد أن ترفع الضمادة عن عينى فهى تنسينى ما أنا فيه، ولماذا ألصقتها على عينى؟ أتخاف أن أعرفك؟ يا تعسى أنت نسيت صفعاتك ولكزاتك، وهذه الضربات المخيفة بين أضلعى، ولكنى يا سيد لا أحمل حقدا عليك فأنا أعرف أنك

مأجور بمرتبك لكي تمتهن كرامتي، ولكي تمارس رجولتك العجفاء في وجودي العاجز المريض، المقيد المأسور بلا مقاومة ولادفاع..

وصاح العنف والشباب والغباء فيك.

ـ أخبرنـــــــي.

قلـــــــت

ـ أخبرك يا سيد، أخبرك..

فقط أعرف أنني أحس خوفك وأشمه في عرقك وأعرفه في أنفاسك ولكنني لاأحتقرك، فكل هذا الصراخ والضربات واللكمات وأنا مقيد العينين، لاتعني إلا أنك موظف مريض تؤكد لنفسك أنك على صواب.. وأنت لاتعرف ما هو الصواب، فربما غدا من تضربه اليوم لأنه مجرم، يصبح بطلا في الغد لأنه أصبح صاحب سلطة.. وتقف متحيرا لاتعرف ماذا تفعل.. وتقول صارخا، لابد أن تخبرني وأنا أخبرك..

ـ سأخـــــبرك

إنك شيء تافه في حياة بلادي، توجد وتضرب، توجد وتعذب، توجد وتسأل، توجد وتنتهك الآدمية والوجود ثم.. ياتعسى لك، توجد وتحال إلى المعاش.. ولاشيء يبقى إلا ما فعلت بالناس والوجود.. وكل الناس أشياء حقيقية تبقى بعدك وكل الوجود شيء مستمر لايعرف المعاش ولانهاية مدة الخدمة، فهم دائما في الوجود حتى الستين وحتى السبعين وربما حتى الثمانين، فقط أنا أقصى عن عملي في زهرة

الرجولة والشباب أبحث عن عمل هنا أو هناك: يكمل المعاش حتى ينتهى الولد من المدرسة وحتى تتربى البنات فى راحة وهدوء - وأنا من مزقت الهدوء وأنا من خطمت كل راحة .. وأنا الآن على المعاش؟ به من؟ لا أحد ممن أعرف.. كان يأمرنى فأطيع، فإذا هو عند حافة الطريق، لايأمر ولا أحد يطيع، أما من يبقون دائما، فهم يعرفون من أنا وكيف كنت، يذكرون يدى وثقلها فوق الوجنات، وقدمى وعنفها فوق الظهور.. وهم موجودون ، وأنا ضعت، لا أحد يحمينى، لا أحد يهتم، لا أحد يعينك، لا أ. د يحميك، لا أحد يعرفك، لا أحد لا أحد.

ـ سأخـــبرك..

أنا الوجود والبقاء والاستمرار، وأنت اسم فى ملف، وأنت لاتعرف يا تعسك.. أنت، لاشىء يهم، لاوجود..

أخبرنى يا سيد، حطمنى ياسيد، ابصق على وجهى، اطعن بطنى بحذائك وأغمس كفك فى عينى..

أنا أبقى وأنت تضيع.. ألم تعرف بعد..

ـ سأخـــبرك..

إن أختى تزوجت، وأن زوجها حين سافر إلى بعيد، باع عرض أختى.. أصبحت النديمة والصديقة، على الشراب، وفى الجلسات، وعند نهاية السهرات، لكى تأكل يأكل زوجها.. ولكى تعود ويعود زوجها ، يقبضان منك ثمن حكاياتهم عمن يسامرون، وعمن يراقصون، وعمن يقاسمونهم الشراب، وربما الفراش.

أنت يا سيد فعلت هذا بها.. بمالك المبذول، وصوتك العالى، وصراخك المحموم.. وأنك تعتنى بعضلاتك، والشعرات الصارخة فوق صدرك، وأن عندك أكثر من شقة خالية تصحب إليها الفتيات المذعورات فيضعن تحت وجودك القذر..

وأنت لاتستطيع إلا أن تكون وجودا قذرا، تركع تحت أقدام الفتيات المذعورات الخائفات لايستطعن لك منعا، ولايستطعن لك عطاء، وتلعق كعوب الأحذية، وتسعد حين تسمع آهة الارتياح، إنك لاتبغى إلا لعق كعوب الأحذية، وتظنها أهات عطاء.. يا تعسك.. ليس لديك عطاء، رجولتك ضاعت يوم مرغتها أمام الرجال، تضرب وتصرخ وتعذب وتصرخ، وتجلد وتصرخ.. وأنت ضائع وسط الصراخ.. لارجولة ولاذكورة، وإنما أنت هنا تلعق كعوب أحذية الفتيات الخائفات فإذا أنت فحل، وإذا هن عميلات لك، وللذعر العظيم الذى تضعه فيهن، خوفا على وجودهن، وخوفا على من يحببن من رجال..

وتصـــــرخ..

ـ أخبـــرنى..

وأخبرك.. نعم أخبرك..

وماذا تريد منى أن أخبرك؟

أخبرك أننا نتشقق، نتصدع، ننهار..، يسقط جزؤنا فوق كلنا، ويسقط كلنا فوق جزئنا، ونتشقق، ونتصدع، وننهار..

هل هذا يرضيك يا سيد..؟

أنت فعلت هذا بوجودك المصمت الذى لايعرف إلا لونا واحدا من الحقيقة، تلك الحقيقة التى تعرفها، ولاتعرف كم هى قاصرة عاجزة مقيتة، وأنت تريد أن تدفعها فى حلوقنا دفعا.. ياولدى أنت صغير، وما تعرفه صغير، وليس فيما تعرفه إلا العجز والقصور، ولكنك عارم القوة، ونحن عجزة مقيدون، شبابك يلفحنا بناره، وأقدام جنودك فى ظهورنا، وسياط زبانيتك فوق صدورنا والنور البهر فى عيوننا، وأنت جاهل.. يا ولدى أنت جاهل.. وتصيح..

أخـــبرنــــى..

أخبرك أنه حين يخلو الوجود من المعنى والغاية، حين ينصرف الوجود إلى عبث لامعنى له، حيث يسود السوط والرعب وانشوطة الخناقين، نجبن نعم يا سـيـد.. نجبن، فنحن ناس من الناس، نجبن وننحدر وتسعد وتلعق شفتيك وتمر بيدك على شاربك الزغب.. فنحن نجبن وتنحدر، ونصبح عناكب مرتجفة تتشبث بالحوائط بسيقان رفيعة بالية لاتصلح ولاتقاوم ولاتصمد .. ياالصيحة انتصارك ومجدك..

نعم يا سيد .. نحن عند أول هبة ريح، ننهار ونتشقق ونتصدع.. ويصبح كل وجودنا العبث والضياع.. ولايصبح فى الوجود كله إلا أنت، ورائحة العطر الفواح من قميصك، وأنت تصرخ، فإذا السياط على ظهورنا، وتبتسم وتتذكر ليلتك بالأمس مع ابنة واحد منا.. ثم تصرخ، فإذا الأحذية المصمطة فوق ظهورنا، وتبتسم وتتذكر ليلة الأمس مع زوجة واحد منا.. ثم تصرخ فإذا الأصابع فى عيوننا، وإذا كل شىء أسود، وكل شىء دمار وإذا نحن نصرخ، ونصرخ ونصرخ وتصيح.

ـ أخبرنـــــــى..

وأخبرك.. وهل أملك إلا أن أخبرك..

سأخبرك يا فتى.. أننى منذ سبعة آلاف سنة رفعت حجر الأهرام فوق كاهلي ومضيت، ومزق السوط ظهرى فتعثرت، ولكنى تحاملت ومضيت.. ثم وضعته سالما فى مكانه عند حافة الهرم، حجرا فوق حجر، وأبنى الهرم، ويهوى السوط فوق ظهرى ولا أصرخ، وإنما أمضى فى استسلام، أرفع حجرا جديدا، ثم أرفع حجرا جديدا.. أبنى الهرم..

نعم سأخبرك.. وهل أملك إلا أن أخبرك..

سأخبرك يا فتى.. أننى حين ساقونى وحسين وعبدالخالق وعتريس، وعز الناس، بالسياط إلى حافة القناة، مضينا نحفر فى صمت، نرفع ما نحفر من أتربة فوق المكاتل، وتسوخ أقدامنا فى الرمل، ونذهب إلى الحافة، نلقى التراب ونعود من جديد، ويمتد السوط ليدمى الأكتاف والظهور وليقول عز الناس..

ـ الصـــبر يا ولاد..

ويقول عـتريــس

ـ الرجال للمحنة يا ولاد..

ويقول عبدالخالق:

ـ الله على المفترى يا ولاد..

ويقول حسين:

ـ قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد.

وتنهال السياط، ونرفع الفئوس، وتنهال السياط، وننحدر بالفئوس إلى الأرض، ثم تنهال السياط لنرفع المكاتل مليئة بالرمل والماء والطين والعرق والدم..

وحفرت القناة..

وعدنا من غير عتريس ولاعبدالخالق ولاحسين، وصرخت أم الخير، وباتعة، وست أبوها. وارتفع الصوات.. وطأطأنا الرءوس وكأننا نحن من أجرم في حق النساء والأولاد حين عدنا دون الرجال الذين أكلتهم السياط والشمس والرمال، والدخان المنبعث من غلايين الافرنج، وارجيلات الحاكم التركي السمين.

أخبرك.. أتريد أن أخبرك..

وأنت تقضي ليلك بين بكائنا وعويلنا بلا عمل، فترفع سماعة التليفون لتسلي نفسك بحديث طويل مع بنت حلوة، تظن أنك الغد وأنك الحياة، وأن صدرك يفتح الأفق، وأن نظراتك العاتية تأكل الحياة.. وهي لاتعرف أن صدرك اتسخ لأنه صدر جبان خائف، وأن نظراتك وجلة لأنها تخاف سؤال الرؤساء عن نتيجة ما فعلت في قهر وجود الرجال.. هي لاتعرف، فهي طفلة لم تعرف الحياة، ولم تعرف أنك لاتجيد إلا

لعق كعوب أحذية النساء.. يا لتعسك حين تكتشف أنك تبحث عن كعب حذائها لتلعقه..

يا سيد أنت تريد وتصرخ وتلطم وتقول:

ـ أخبرني..

أخبرك يا سيد.. أخبرك، وسأخبرك..

كنت طفلا تلبس السروال القصير، وأمك تمسح لك أنفك المبلول دوما، وتقول لك حين تريد أن تبول، ارفع أصبعك وأطلب من الأبلة أن تصحبك إلى الدورة.. نعم كنت طفلا تخاف مواء القطة وتخشى نظرات عجوزة صبى الكواء، وهو يكاد يلتهمك، ويلتهم سروالك القصير الممتلئ بفخذيك السمينتين، وتجرى خوفا من عينيه، ومن يده الممتدة دائما لقرص عجزيك، فيهتز وجودك كله بالرغبة المشتعلة فى أصابعه.

وكنا نسير فى طابور طويل، ونحمل الأسمنت ونصب الخرسانة، وأولاد مردة خرجوا من الجامعة منذ حين قصير، يرشدوننا أين نضع الأسمنت، وأين نعبد الحديد الطويل، ثم أين نصنعه لكى تكمل القواعد وجودها.. وفجأة انطلقت القنابل والقاذفات، وهبت الرياح العاتية وأكلت الرمال السافيات كل ما فينا من شجاعة وبقاء وإصرار، ومضى الزمن ونحن نبنى قواعد الصواريخ والرمال تأكلنا بعض حين، وقذائف الغدر تأكلنا كل حين.. من منا كان يعرف أن المهندس خان وأن قواعد البناء فى يد الأعداء، وأننا نصلى النار والمتفجرات والموت بالعشرات، لأن كلبا هو سيدك يريد أن يبنى مالا ومجدا، وأنه فوق الكل السيد والمعلم، وإننا ينبغى أن نموت..

ولم تلطم خضرة ولا أم الخير، ولا وطنية وإنما قالت باكية..

ـ حسبنا الله ونعم الوكيل..

وخرج الراديو يقول: هو عام الاستنزاف، والصمود..

وبكى رجل عند القمة وانهار، وضحك رجل عند السفح وأخذ يصعد فوق الدماء المبذولة المراقة بلاثمن..

وتصرخ..

ـ يا كلب تتجرأ على الأسياد؟

وأسيادك يا سيد القواد، والحفار، وبائع المخدرات، والمتاجرات فى الموز والدواجن والمحتكر للعلف والبهائم، والمتحكم فى دنيا السجائر.. والمختبئ وراء تجار البيض، وضياع سمك البحيرة حتى لايصل ولايباع ولايؤكل..

وصاح عنيفا صاح..

ـ قل ولاتتحايل..

ثم ضربنى بحذائه، وصفعنى بيده الثقيلة، وأدرت عينى لأراه وجاءت لكزة فمزقت حشاى..

وقال:

ـ أخبرنى..

صرخت وسط العذاب ووسط الصفعات قائلا..

ـ سأخبرك.. نعم أخبرك يا سيد..

يوم خرجنا كالسيل العرم، كالنهر المتدفق نخوض النار والصواريخ، وقنابل الطائرات ونندفع، نعم نندفع إلى فوهات المدافع نسدها بصدورنا، إلى الدبابات نهزمها بأجسادنا الحية إلى الخنادق نخترقها بقلوبنا، وعبرنا وبهرنا وأكلنا الحديد والنار والرصاص.. ومتنا..

وكنت يا سيد على مكتبك هذا تتابع صبية الجامعة، أين كانوا وكيف كانوا، وماذا قالوا و.. وكيف قالوا..

وكنت يا سيدى على مكتبك هذا.. تتسمع على أحاديث الرجال مع النساء، وأحاديث النساء مع الرجال، وتبنى هرما من التقارير والحكايات.. ورغم أننا متنا وعبرنا، وصرخنا، ومتنا إلا أنك كنت فى مكانك تملأ الصفحات حول من منا أكل البرسيم، ومن منا كان يأكل الفول، ومن منا كان يعيش على المكتب.. وكم نوعٍ قرأ من الكتب.. وتصيح:

ـ يا كلب اصمت، أو أضع حذائى كله فى فمك..

وأصمت، فقد وضعت وجودى كله فى فم المدفع.. ولكنك الآن تجلس على المكتب وتصيح، وأنا أنسى الدخان والنار ومزق الأجساد المتطايرة، كل شىء ضاع إلا أنت، فأنت فى مكتبك هذا المنتصر، يا تعس عبد البارى الذى مزقت قصبته الهوائية رصاصة، فمضى يهتف بين الدماء المندفعة من رئتيه، والهواء المتبقى بفتحة فمه، ويقول:

- تحيا مصر..

ياتعسه.. مات ونسيت أنت أن تستدعيه فى مكتبك.. لتسأله ماذا يعنى بمصر، وما هو مصر ومن هى مصر؟

وأنت الحكم.. يا من لم تكمل دراستك الثانوية إلا بصعوبة، أنت أنت من تسأل عن معنى مصر، وما هى مصر.. ومن هى لك مصر ياسيد.. وتصرخ، وتضرب الأرض بقدمك، وحذاؤك الثقيل يكاد يخترق رأسى وعقلى.. وتقول..

- أخبرنى

وأخبرك.. وهل أملك إلا أن أخبرك..

وضعت فى متاهات المدينة، وفى مسارب القرى والنجوع، ولم أعد أوجد أبدا.. لم أعد أوجد.. إلا أمام الجمعيات الاستهلاكية أقف فى الطابور علنى أحصل على علبة سجائر أو نصف كيلو لحم، أو بارقة أمل فى عشرة أمتار من الكستور.. ضعت يا سيد.. نعم ضعت؟ أمى تقول لابد أن تقف فى الطابور، والزوجة تقول: طابور الفراخ طويل، وأقف، وأقف ولا أستطيع إلا أن أقف.. وفى الليل آكل ماء لزجا به مرق من لحم.. لا أعرف له طعما .. وتقول زوجتى هذا لحم الجمعية المجمد، أحمد الله أننا حصلنا عليه، غيرنا لم يستطع، فكل واسكت وآكل واسكت يا سيد..

قالت أمى.. أعطينا جزار الجمعية ما فيه القسمة..

وقالت زوجتى.. كان ينظر إلى فى الطابور، وفى عينيه لغة أفهمها، وحين وصلت إليه.. فضلنى على من فى الطابور وأعطانى هذه القطعية من اللحم الجيد..

وأكل، وأعص، وأسكت..

وتصرخ أنت فى عنفوانك:

ـ أخبرنى، وإلا ذبحتك.. فأنت تريد قتلى أنا.. وأنا أريد ذبحك أنت، فإما أن تقول وإما أذبحك، وقلت.

ـ أخبرك يا سيد .. واذبحنى يا سيد.. فليس لمثلى ثمن.. اذبحنى وقل مر من هنا وعبر.. فلديك الأمر أن تضرب كل من يمر حولك ويعبر، أعطوك الأمر..

فأنت يا ولد الشرطى والنائب والقاضى والجلاد.. فقط كل من مر بك اضربه..

وأقتله ولاحرج..

ـ لاتصرخ فىّ ابدا.. أخبرنى..

ـ سأخبرك..

الأولاد اختبأوا فى المقابر والجبال، والرجال اختبأوا فى البلاد البعيدة وفى صمت دائم مخيف.. وتتطاير الكلمات، لا الأولاد استراحوا، ولا الرجال عادوا.. وكل شيء مصمت رهيب ..

وصحت في عنف وقسوة:

ـ كل الناس في قبضتي في السجن، ساحتي وملعبي، والناس عبيد رحمتي، أخبرني أو أدمرك..

وقلت لك..

ـ بل سأخبرك..

وقلت في عنف الصولجان والسطوة..

ـ لابد أن تخبرني وإلا أدمرك، كل المواقع في يدى الآن، وإن لم تخبرني مزقتك فأنت وكل شيء ضدى ولن أتردد في أن أقتلك، أمزقك، فقط أخبرني، فورا، لابد أن تخبرني في الحال..

وهل أملك شيئا، لابد أن أخبرك.. في خوفك المذعوّر، لابد أن أخبرك في رصاصاتك تصيب من هم ضدك ومن هم معك لابد أن أخبرك، في عتهك هذا لابد أن أخبرك، فأنت الآن تخاف وتخشى وحين يصيبك الرعب فأنت تضرب في كل اتجاه وحتى أنت لاتعرف من تضرب، ولماذا.. ولكنك خائف، وأنا أحس خوفك في صوتك، في صراخك في توتر عضلات ذراعك المفتول، في هذه الشعرات المتفزرة في صدرك، في أنك برغم كل العطور.. تظهر برائحة الموت تحيطك..

سأخـــبرك..

نعم يا سيد سأخبرك.. أنني رغم كل شيء سأقتلك.. فأنت لم تدع أمامي طريقا إلا أن أقتلك..

ـ وأخبرك.. أنني في وسط أمنك أقتلك، أنت يا سيد تحديت رجولتي عبر السنين منذ سياط خوفو ومنقرع ومنذ شق القناة وتحدي أسطول الحلفاء في نفارين، ومنذ صرخات الشباب في شوارع القاهرة في وجود سعد زغلول والنحاس، ومنذ أمل العهد في ثورة عبدالناصر، وضياع كل شيء عند هزيمة مايو.. منذ ساعتها أعرف أنني سأقتلك يا عفن الأمس؟ وسخرية اليوم.. سأقتلك.. وأرد رصاصك إليك.. وأخبرك..

ـ وأحب مصر يا سيد.. وهي التي تقتلك..

وسأخبرك..

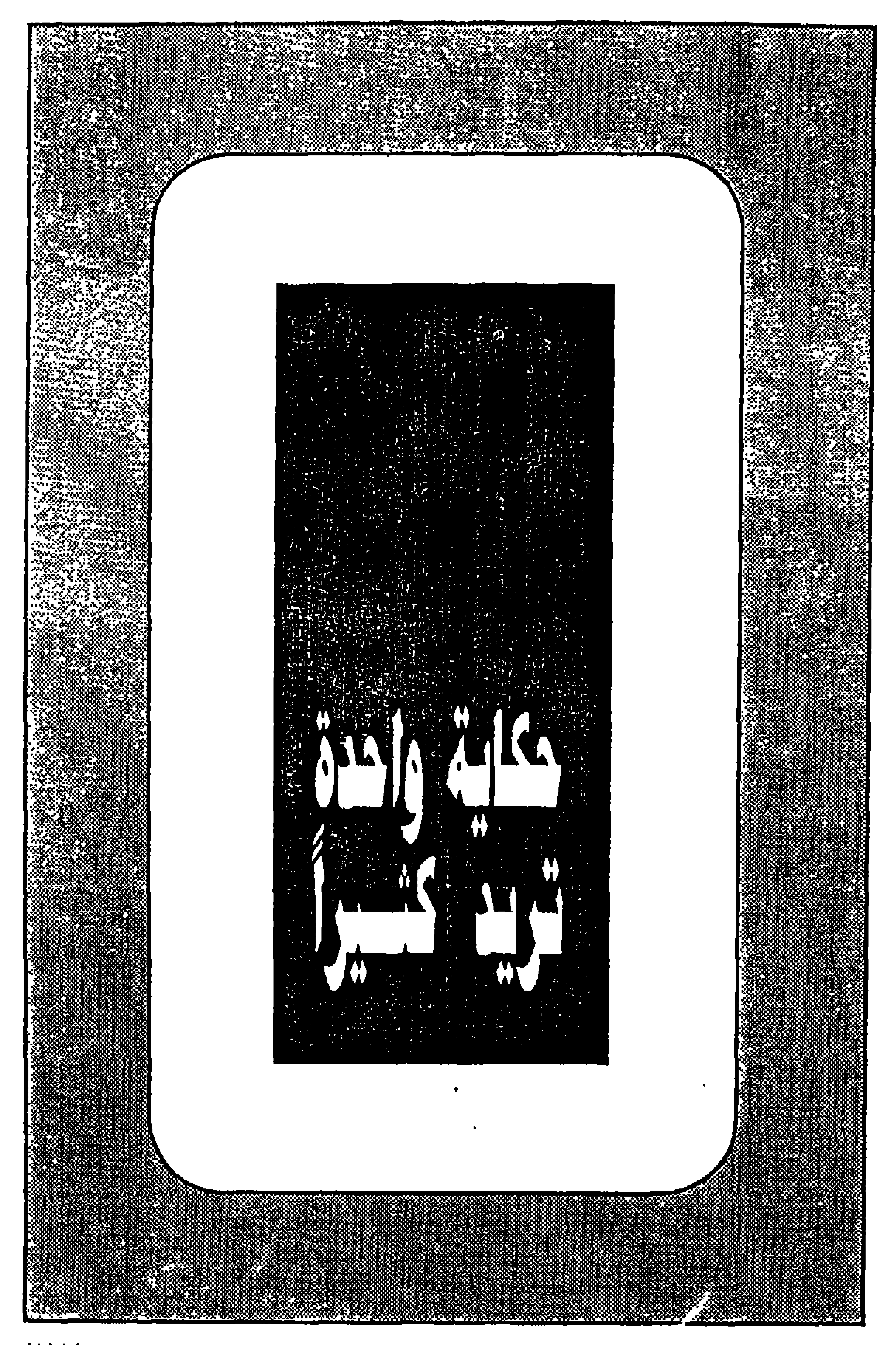
إنك زائل، ضعيف، وأنني حين أبحث عنك لن أجدك، فأنت اسم ضائع وسط السجلات والأضابير وقيل لي إنك أصبحت على المعاش.

ـ أخبرك.. ولكن من يسمع.. من يعرف أنني حين أخبرك أقتلك..

سأخبرك..

نعم سأخبرك، حتى وأنتم تحيطون ذراعي بأيديكم الصلبة المدربة وتلصقونها بجنبي حيث يهتز قلبي في رعب الخوف.. ووجل التعاسة.

سأخبرك..


حكاية واحدة
تزيد كثيراً



لايدرى متى حدث هذا، ولاكيف.. لقد غدا نجما ساطعا فى مجتمع القاهرة، الكل يتسابقون إلى التعرف إليه، وإلى دعوته على الغذاء والعشاء والإفطار ـ إن أمكن ـ.

ولكن هذا ما حدث، وهذا ما أصبح واقعا يعيشه، ويدير رأسه، ويلفه فى دوامة متصلة لاتهدأ ولاتستقر.. ووجد نفسه فى هذا المطعم الفاخر الذى لم يدخله قبل الآن قط، بل لم يدخل مثله أبدا ـ وكان الداعى رقيقا، فجمع مع الطعام والشراب، مجموعة من الأصدقاء والصديقات.. وقال له:

ـ إن لم تشرب أنت فلن يشرب أحد، فالكل هنا مدعو للإحتفال بك، ومن أجلك، فإن طلبت القرفة شربوا جميعا القرفة، وإن شربت كأساً شربوا جميعا فى نخبك.

قال وهو يدير رأسه في المكان المعتم الضوء المعطر الرائحة، المنغم بموسيقى حالمة:

- أفى مثل هذا المكان تشرب القرفة؟

ضحك صاحبه وربت على فخذه فى ألفة، وقال:

- قل ونشرب ما تشاء.

أطرق برأسه وقال:

- ولكنى لا أستطيع أن أدعو أحدا على كأس هنا، فلم أكن مستعدا، يعنى ما فى الجيب. عاد صاحبه يضحك وهو يربت على فخذه فى ألفة متزايدة، ويقول:

- أنت معزوم، وكل هؤلاء معزومون من أجل خاطرك فكلهم يريدون التعرف إليك فقل، ولاحساب هنا لشرب فالحساب مدفوع، أنت تأمر..

ضحك على استحياء وقال:

- أنت تعرف أننى أحب أن أشرب.

ضحك الصديق ضحكة عريضة، وصاح بالساقى وهو يقول:

- ونحن كلنا نحب أن نشرب، فقط كنا نتحرج أن ترفض الشراب فى مكان عام.. ولكن الشراب ينزل حالا..

وتلفت حوله فى حذر.

كيف جاء هنا، ولم هو هنا أصلا؟ وأحس بيد حانية تربت على فخذه فى رقة فانتفض، والتقت عيناه بعينيها.. وتاه.

ضحكت ففاح المكان كله ببخور مقدس، ثم مدت يدا ترفع خصلة متهدلة عند حاجبها فاهتز قلبه، وقالت، وفى صوتها حلم عميق، عميق مفعم بروائح شرقية بهيجة غريبة.

ـ أنت هنا ضيفى أنا

قال فى حـــيرة:

ـ والداعـــــى؟

همست وهى تضحك وتمد أصابعها الطويلة الباردة الملمس إلى خده، تقرصه فى حذر:

ـ هذه دعوتى أنا ـ أفهمت؟ فأنا وهو واحد فهو زوجى وإن لم تقبل هذه الدعوى على العشاء لأكلته أكلا..

ضحكت وانفرجت شفتاها عن صفين من الأسنان اللامعة البراقة، وشىء رقيق يمر بينهما فى عذوبة، وقالت:

ـ وأنا قادرة على الأكل.. الطعام والناس أيضا.

ثم قرصته فى فخذه.. وأحس بتيار من الكهرباء يمر بجسده كله، فيهزه، ويهزه.. ونظر حوله.. لم ير أحد كل ما حدث، زوجها يضحك مع أمرأة إلى جواره والآخر يميل على أمرأة يحدثها فى أذنها، أو ربما فى أنفها، ربما فى شفتيها، وهمس فى ضعف:

ـ أنصرف الآن، فهذه سهرة مشوقة، وأنا سعيد، وأشكر لكم، أعني أشكر لك هذه الدعوة.

قالت:

ـ إلى أين؟ نحن لم نبدأ الليل بعد، هل أنت جبان؟

نظر إليها وصمت.. لم يكن يعرف هل هو جبان، كل جبان يتصور أنه شجاع، بل وأحمق فى بعض الأحيان، حين يندفع إلى مواطن الخطر الحقيقية فتصبح حياته كلها فى خطر..

هل هو جبان؟ وطال صمته.. وقالت:

ـ بل أنت جبان.

قال:

ـ أمام عينيك ربما..

وضحكت.. وشالت ذراعيها، فانداح حاجز رقيق يكشف ابطها، وشعيرات خفيفة هناك.. وأحس رأسه يدور من جديد، وعاد يقول فى خوف:

ـ أنصرف الآن.

ضحكت وقالت:

ـ أنت مصر .. فاذهب إذن، ولكنى أريد رقم تليفونك، وأن تعدنى بلقاء قريب. هل قال؟ وهل وعد؟ هل أعطاها رقم التليفون؟ كيف

انصرف؟ هو لايدرى.. كل ما يدريه أنه فى الليل، فى سريره، جمع نفسه بصعوبة، وتنفس فى عمق، وهمس كأنما يؤكد لنفسه شيئا:

ـ ليلة وانقضت.

***

جاءه الصوت عبر التليفون يضحك ويهمس ويسخر، ويتأود، ويقول:

ـ هل نسيت سهرة الأمس.. أنا لم أنس.

همس فى اضطراب وحرج:

ـ هذا تليفون المكتب، وينبغى أن يكون الكلام محسوبا..

صاحت وهى تضحك:

ـ ألم أقل لك، أنت جبان.

قال فى حرج:

ـ لست جبانا، ولكن هذا تليفون المكتب.

قالت فى حدة:

ـ قلتها من قبل.

قال فى تخاذل:

ـ ونحن تعارفنا بالأمس فقط كصديقين عابرين.

ضحكت فى خلاعة وقالت:

- كصديقين.. أهذا صحيح..؟ أم أنت جبان وكذاب أيضا؟

قـــال:

- أنت تهاجميننى فى عنف.

قالت:

- أنا لا أحب المداورة، ولا أحب الضعف.

قال:

- ولكن زوجك صديقى، وأنت بعد زوجة زميل.

قاطعته الضحكة الناعمة المتفتحة وقالت:

- يا لخيالك الخادع.. مازلت صديق زوجى، وما زلت زوجة صديقك.. ومازلنا أصدقاء، وإنما أردت أن أعرف مدى شجاعتك فى عرينك.

قال فى دهشة:

- عرينى؟

قالت وهى تعود إلى ضحكتها الممطوطة الساخرة:

- مكتبك أعنى.. وعرفت كم أنت شجاع فيه، ولكن اصبر، هذا رقم تليفونى، وخاطبنى متى أحببت، فقط أريدك حين تخاطبنى أن تنسى أنك جبان، أو أنك تدعى الجبن.

وضحكت وقالــــت:

ـ أنت ولد شقي رغم شعراتك البيضاء.. ولم تخدع واحدة مثلي..

ثم أغلقت السماعة، وانتهت المكالمة.. وظل يضع السماعة إلى أذنه في دهشة ـ لم يعرف من قبل في حياته شيئا كهذا، ولا امرأة لها كل هذه الجرأة.. ودون أن يحس، وجد نفسه يدون رقم تليفونها أمامه وهويبتسم..

***

كانت الليلة باردة إلى حد جعل ساقيه ترتجفان وأسنانه تصطك، وكانت امراته قد أعطته ظهرها من زمن طويل، وكان مؤرقا لايعرف طريقة إلى النوم وهب من رقدته في شجاعة فائقة، وخرج إلى حجرة مكتبه يبحث عن كأس.. ربما أدفأت الخمر أطرافه الباردة. وحين شرب الكأس، عرف أن البرد ليس في أطرافه، وإنما هو في دمه نفسه.. كان يرتجف بحثا عن دفء لايقدمه له بيته، ولا الخمر ولاهذا التسكع العقيم بين المسجل يبعث بموسيقى سقيمة، ومصباح المكتب يضيء صفحات سخيفة من كتاب بارد لاحياة فيه ولاحياة في ألفاظه، ولافي معانيه.. هل ينام كالكلب متكورا على نفسه؟

أم يسكر حتى ينسى نفسه ووجوده، ويتخمر.. أم يقرأ هذه السخافات التي لايحبها.. حتى الموسيقى أصبحت مملة وعقيمة.

ودون أن يحس وجد نفسه يبحث عن الورقة التي كتب فيها رقم تليفونها، وأخذ يدير القرص في اندفاع، ودون تحرز.. وفجأة سمع

صوتا على الجانب الآخر من التليفون يضحك نفس الضحكة المليئة الساخرة العابثة، وسمع صوتها الهادر بالحياة يقول:

- هذا أنت .. كنت أعرف أنك ستتكلم.

قال متلعثما خجلا:

- آسف أن تكلمت في هذه الساعة المتأخرة من الليل.

وقبل أن ينهي كلامه، قاطعته ضاحكة ساخرة، عابثة، ماجنة، وقالت:

- يا أستاذ، ضع سماعة التليفون، وتعال..

قال دون أن يدرك معنى كلماته:

- ماذا؟

قالت في ضيق كله دلال:

- يا أستاذ البس ملابسك وتعال فورا.. وكف عن الكلام.

قال متلعثما:

- في هذه الساعة؟

ضحكت، ثم ضحكت مرة أخرى وسكتت، فقال متلعثما:

- الساعةمتأخرة.

قالت ساخرة:

ـ متأخرة عن أى شىء يا أستاذ؟

قال وهو يجمع أطراف نفسه المتبعثرة:

ـ عن زمن النوم..

صاحت وكأنما تنهر طفلا شقيا عابثا:

ـ يا شاطر، ليس هناك وقت للنوم، ولا وقت للاستيقاظ.. المسألة إنك تعيش أو لاتعيش.. فهل أنت تعيش الآن.؟

تردد ووجم، ثم وجد نفسه يندفع قائلا:

ـ لا.. لست أعيش، بل لست أوجد، كل شىء بارد وسخيف.

جاء صوتها عبر التليفون قائلا:

ـ يا ســـــلام.

ثم سكتت، وسكت مــحــرجــا.. وحين طال السكوت قـالت في سخرية:

ـ يا أستاذ.. عيب..

قال فى حذر:

ـ عيب، ماذا فعلت ليكون عيبا..؟

قالت فى أنف:

ـ ما تقوله عيب.. وما تفعله عيب.. انزل يا رجل وخذ سيارتك وتعال.

قال:

ـ إلى.. أين؟

قالت:

ـ خذ عنواني، اكتبه حالا، والبس وانزل، انا في انتظارك..

قال متلعثما:

ـ ولكن.. الليل.. وظرفك، و..

ضحكت ساخرة، وقالت:

ـ جبان، ألم أقل لك ـ اترك كل شيء لى، فقط تعال.. ولاتنس، الدنيا برد، البس معطفك.

لم يدر ما حدث له، أغلق التليفون، ومضى يدور فى الغرفة كالمجنون، يغلق المسجل يشرب كأسا أو بقاياه حتى الثمالة، يهرع إلى حجرة النوم، يرمى الروب والبيجامة، ويرتدى ملابسه مسرعا.. يرقب زوجته النائمة فى استكانة، تصدر صوتا رقيقا وهادئا، ومستقرا، هى نائمة، وستظل نائمة حتى الصباح.. وحين انتهى من ارتداء حذائه، تلفت حوله، وأسرع يطفئ نور الأباجورة، ثم عاد إلى دولاب الملابس، يأخذ المعطف، وغادر الحجرة والشقة، والمنزل وركب سيارته وانطلق بها إلى حيث الصوت الغريب.

حين وصل بعربته، فتح له البواب الباب الخارجى ثم قال فى أدب:

- هنا يا بك، العربة فى أمان.

لم يفهم كيف عرف البواب أنه قادم، ولا أنه بك، فقط أعطى البواب جنيها.. ورد على تحيته، ترك العربة وهو يلتف بمعطفه، فقد كان البرد قاسياً، وجرى البواب أمامه، وهو يحتضن الجنيه فى كفه إلى باب المصعد. وقال:

- أى دور يا بك؟

وارتج عليه، لم يعرف كيف يقول إنه لايعرف الدور ولا الشقة، لكنه تذكر اسم زوجها، فقال للبواب الاسم وهو يرقبه فى حذر.. ولكن البواب رفع يده إلى رأسه تحية واجلالا، أغلق باب المصعد ووضع يده على مفتاح الدور المطلوب، وسكن إلى جواره فى المصعد دون حديث.. وحين وقف المصعد، فتح له الباب، وهو يقول فى أدب:

- هنا يا بك:

وغادر المصعد، وأغلق البواب بابه.. ووجد نفسه فى ردهة مضيئة، وعدة أبواب.. وتملكه التردد من جديد، وجعل يجيل نظره فى الأبواب فى حيرة، وكاد يمد يده يبحث فى جيبه عن العنوان المكتوب، ولكن بابا بعيدا انفتح فى صمت، وخرجت إليه بابتسامتها المشرقة وهى تقول فى صوت

هامس:

- أهلا.. من هنا

ولم يفكر، فقط مضى مسرعا وكأنما يخشى نور الردهة.. وحين وصل إلى الباب امتدت يدها إلى ذراعه تقوده وهى تهمس ضاحكة:

ـ كنت أنتظرك، وحين سمعت صوت المصعد عرفت أنه أنت.. تعال..

وكصوتها الهامس الغامض، بدا كل شيء هامسا وغامضا.. فحين أغلق الباب كانت الردهة التى قادته عبرها معتمة، ضعيفة الضوء، ولكن رائحتها هى كانت نفاذة ومدلة ومخدرة.. وانساق وراءها عبر الردهة وقد تاه فى العطر الفواح، والصمت، والضوء المعتم، واليد التى تقوده فى ثقة..

كان كل شيء رائعا، ومسترخيا، وقد ضاع برد الشتاء خارج الشقة، وخارج هذا الوجود المعطر الرقيق.

وانحنى فى سيره لضغط يدها، وفتحت بابا، ودخل وراءها، إلى ردهة أخرى رقيقة الضوء رقيقة الرائحة، ثم فتحت باب غرفة وقالت هامسة:

ـ تفضل.

وطالعته أصوات الموسيقى الحالمة، كما طالعته رائحة العطر المرطب، قبل أن يدخل الغرفة..

ودخل وقالت:

ـ هات معطفك.. هنا دفؤك، وهنا تهدأ

وأخذت المعطف، ودخل إلى عالم مخملى عجيب.. كان الضوء موزعا بطريقة هادئة، وكانت الموسيقى تنبعث من مصدر مجهول، وكان العطر الهادئ فواحا، يهدهد أنفاسه ويخدر وجوده كله، وكانت الحجرة الممتدة أمامه كأنها من الأحلام.. وكأنما خرج من صقيع يناير إلى دفء يونيو. وطوت المعطف ووضعته إلى حافة مقعد، وقالت

- أتحس بالدفء.؟

ضحك ضحكة خافتة وهو يقول متلمسا ملابسه الشتوية.

- نحن فى الصيف.

قالت:

- تخفف إذن.

ثم قادته إلى الحجرة الرئيسية فى الجناح.. بالفعل كان كأنه فى جناح مستقل فى فندق عالمى الطراز.. الأضواء خافتة وموزعة بنظام.. وروائح ذكية تتصاعد من كل مكان، والمقاعد مريحة فى كسائها، وفى لونها، وفى شكلها العام. وخلع الجاكيت والبلوفر، واسترخى فى هدوء.. وعادت تسوق أمامه منضدة متحركة مليئة بالزجاجات الفاخرة النوع وقالت:

- شرابك المفضل، قل تجد..

نظر إلى المنضدة وما عليها من زجاجات وتاه.. ثم قال:

- ما تشائين.

قالت:

ـ فأنت ملكي الليلة، أسقيك كما أحب، وأطعمك ما أريد، وأفعل ما أشاء.

ضحك وهو يحس بخدر يلم بأطرافه كلها وهمس:

ـ يا سلام.

ضحكت هي، ومدت يدها بالزجاجة، فمد يده يملأ كأسه، رشف منه رشفات وهدأت نفسه، كل تعب اليوم، انزاح، وراح.. وهو يغوص في المقعد الوثير وفي يده كأس رقيقة وموسيقى حالمة تحوطه وتبتلعه، وتنسيه متاعب اليوم كله.

وفجأة سمع صوتها هامسا تعيده إلى دنيا الواقع، وكانت تقول

ـ مولاى شهريار يأكل الآن، أم فيما بعد..؟

كان صوتها ضاحكا وساخرا معا، ورفع رأسه إليها، كانت قد غيرت ثوبها الذى لقيته به كانت فى ثوب هفهاف، عربى التطريز، يكشف أكبر مما يكسو، واستمر فى استرخائه وهو يقول:

ـ مولاتى تأمر فأنا ملك لها طوال الليل ـ أو ما تبقى منه.

قالت:

ـ الطعام جاهز يا مولاى.

ودفعت أمامها بعربة صغيرة أخرى محملة بأطباق متعددة..

ولم ينظر إلى المائدة أو الأطباق، عاد نظره إلى المائدة الأخرى المحملة بالزجاجات، ثم رفع رأسه إليها وقال:

- كل هذه الضجة ألا توقظ من بالبيت؟

ضحكت ولوحت بساعدها، فانكشفت الساعد حتى إبطها، إذ انزاح الثوب الشفاف عنه ليكشف تناسقه ولونه العاجي، وقالت

- الحوائط مبطنه بعوازل الصوت يا مولاى..

وأسقط فى يده.. ما هذا العالم السحرى الذى دخله؟ وجعل يتلفت حوله كفأر وقع فى مصيدة، وعادت ضحكتها تجلجل من جديد وهى تقول:

- مولاى شهريار يأخذ كأسه حتى لا يثقله الطعام.

ولعن شهريار وشهر زاد والجنى والمصباح المسحور، وكل ما يتعلق بألف ليلة، وهو يأخذ كأسه فى يده، وقال:

- هذا كثير.

ضحكت وهى تمد يدها إلى الحائط، فإذا بالستار المسدل يتداخل إلى بعضه ويختفى فى الحائط، وإذا هو أمامه حجرة صغيرة كانت مختفية، الإضاءة الهامسة، والسرير الوثير الغريب، لم ير فى حياته من قبل سريرا دائريا إلا الآن.. وذهل، فوجم وسكت وقالت:

- أيعجبك يا مولاى..؟

وفجأة ضحك، وأغرق في الضحك، ووضع الكأس أمامه وعاد يضحك من جديد، قالت مذهولة:

ـ ما الذي يضحك في السرير يا مولاي؟

توقف عن الضحك فجأة، وعاد ينقل بصره بينها وبين الحجرة التي غدت واسعة جدا، وبين منضدة الشراب، ومنضدة الطعام، ثم السرير الذي تكشفت عنه الستار وقال:

ـ كان سرير أمي النحاس عاليا.. وكانت تصعد إليه بسلالم خشبية، سلمتين كهاتين السلمتين تماما.

ضحكت وهي تشرب من كأسها، ثم تضعه فوق المنضدة أمامها وقالت:

ـ مثلهما تماما..؟

قال:

ـ لا.. هذه سلالم مخملية، وواطئة، فليس لها ضرورة بالفعل، فالصعود إلى هذا السرير لا يحتاج إليها.. وإنها..

صاحت وهي تقلع من مكانها، لتحط فوق فخذيه:

ـ لكنها ذكرتك بالسرير القديم.

وضحكت وهي تعبث في شعره الكث الأبيض وقالت:

ـ أنا لست أمك، وهذا ليس سرير أمك، هذا السرير يشترى أمك وكل ما ملكت، ربما هي وأجدادها أيضا.

وأحس بيدها باردة على رأسه، كأن كل أصبع يشق لنفسه مجرى في شعره حتى يصل ببرودته إلى رأسه، ثم تشقها إلى مخه نفسه.. وعاد إحساسه بالبرد يشتد رغم دفء الغرفة، وضحكت وقفزت تتأود أمامه وهى تقول:

- هذه أذواق أوروبية يا سيد.

وقال هو يستجمع ما ضاع من شوارده:

- أين ذهب.. مولاى. هل تحول إلى سيد بقدرة قادر.

قالت.

- ذهب مع أفكارك التى أنستك أين أنت.. فهل أنت مازلت هنا؟

ضحك، ورفع كأسه إلى شفتيه يحتسى جرعة كبيرة، ثم قال:

- بل أنا هنا، ولن ينسينى أنى هنا، إننى تذكرت سرير أمى النحاس صاحب الدرجتين الخشبيتين، شربت من كأسها ، وتأودت، وضحكت.. ووضعت أصبعها فوق شفتيها فى تحذير، وقالت:

- ينسى مولاى أمه، وأنسى أنا أنه تجاوز حد الأدب، فأنا لست أمه.

ضحك وقال:

- لو شاهدتنى أمى الآن لماتت بالسكتة القلبية فأنا وسط الحرام الذى كانت تدعو لى دائما أن أتجنبه وأن تجنبه لى الأيام.

وكأنما أحس بسخف كلامه، فشرب من كأسه جرعة، ثم ضحك، وصفق بيديه، وقال:

- لماذا كل هذا الكلام.. أنا جائع.

قالت:

- الطعام جاهز يا مولاى.

قال:

- عدنا إلى مولاى، ونسينا يا سيد، لو تنسين مولاى هذه.

قالت:

- كيف أنساها، وأنت مولاى.

ودون أن يأخذ حذره، مدت يدها إلى ملابسه تنتزعها قطعة إثر أخرى، وثقل الجو، والموسيقى حالمة، والجو عطرى، وكل شىء دافئ، وهى شهية، وغريبة ومستفتحة.. ونسى نفسه ونسى أمه، ونسى كل شىء، فقط هو فى حضن هذا العطر، وهذا الدفء، وهذا الثراء.

***

حين دخل إلى سريره نام فى عمق.. وبلا أحلام.. وحين أفاق فى النهار، وضع المخدة فوق رأسه ونام من جديد.. وظل ينام إلى أن أيقظه قرع على الباب، وصياح يقول أن العربة تحت تنتظر ذهابه إلى عمله، وأن السائق ينتظر، وأن البيت كله ينتظر، وأنه إن نام بعد هذا فحكاية وعبث..

وفى مكتبه شرب القهوة، وبعد القهوة، قهوة، ومضى يعمل فى تعثر أول الأمر، وفى تردد بعد ذلك، ثم فى ثبات وإصرار.. وسرعان مانسى نفسه فى العمل.. وكأن أمسا لم يكن..

وضرب جرس التليفون الأول، فرفع السماعة وقال:

- حول كل التليفونات على صالة التحرير.. أنا مشغول.

وأغلق السماعة.. وعاد يندمج من جديد فى موضوع المقال الذى تحول من مجرد أفكار عابرة إلى مشروع واعد.

ولكن التليفون الثانى ضرب فى شدة، ورفع السماعة وهو يقول:

- نعم..

كان مستسلما، فهذا التليفون مباشر، ولايمكن إلا أن يرد عليه أو يقطع المكالمة بنفسه، وكان على وشك أن يقطع المكالمة حيث غاب عنه رد من يتحدث، حين سمع صوتها المتأود الهادئ،

يقول:

- ألا تريد أن ترد على أحد؟

ووجم.. وعادت تقول:

- أنا لن أكلك.. ولكن يجب أن ترد علىّ حين أطلبك.

قال دون أن يفكر:

- أنا مشغول بالمقال، ولابد أن ينتهى بسرعة وإلا أخرنا طبع الجريدة كلها.

ضحكت ساخرة، وتأود صوتها من جديد، وقالت:

ـ يا أستاذ أنا قبل المقال.

قال في حيرة:

ـ نعم

عادت تضحك، وقالت:

ـ أي نعم يا أستاذ؟

قال في حيرة:

ـ لم أفهم.

قالت:

ـ أنا أحببتك، ألا تحبني مثل ما أحببتك؟

قال:

ـ أنت امرأة عظيمة.

ضحكت وتأودت وقالت:

ـ أمس كنت تقول كلاما غير هذا تماما.

قال في حذر:

ـ يعني؟

قالت:

- يعنى أنك نسيت نفسك، وما فعلت، وما قلت، وما أعلنت.. أنت قلت إنك عبدى، وإنك لم تعرف امرأة مثلى من قبل، وإنك شاكر لدنياك أنك عرفتنى.

قال فى ضعف:

- حديث الأمس انتهى مع الأمس، فقد أثر فى الشراب والمكان، وإنك إمرأة جميلة ورائعة.

قالت فى زهو وهى تضحك:

- أرأيت أنت لن تنسى الأمس وعطاء الأمس، سواء كانت تشغلك مقالة أم لم تكن تشغلك.

قال فى تشبث:

- بل هى تشغلنى الآن بالفعل.

قالت:

- هذا لايهمنى فى شىء.. المهم أنك أصبحت ملكى، ومقالتك هذه، أصبحت ملكى، أليس كذلك يا حبيبى.

ولم يفهم.. وأدار كلماتها فى رأسه، ولم يفهم، فقال:

- بالطبع.. بالطبع.. ولكن أنا سأكلمك بعد حين.

قالت فى حزم:

- بل ستكلمنى الآن، أنا أعرف أن مقالك الذى تكتبه ملىء بالإحصاءات والأرقام فهو عن وزارة معينة، وعن وزير معين بالذات.. وهو لعلمك ابن خالتى وأحب أن تضع هذا فى اعتبارك وأنت تعاود الكتابة من جديد.

ووجم، وضحكت، وجاءه صوتها العابث من الطرف الآخر من التليفون يقول:

- أعجبتك شقتى أمس - وأعجبك الجناح الذى أشغله منها، وأعجبتك الغرفة، وأعجبك السرير وضحكت، ثم قالت ساخرة:

- ألم تدرك أن مثل هذه الغرفة ينقصها شىء هام فى عصرنا يا أستاذ؟

ووجم ولم يرد، فعادت تضحك ساخرة، وتقول فى صوت كله قسوة وعبث:

- ينقصه كاميرات التليفزيون يا أستاذ، أنت صورت أمس، كل ما حدث منك، كل ما قلته، كل ما كنته، كان عاريا أمامى وأمام عدسات الفيديو.

دارت رأسه، وفجأة انطفأ النور أمامه، وارتفعت صيحات من خارج مكتبه:

- النور انطفأ.

- الأستاذ يكتب الافتتاحية

- اسرعوا بالبطاريات.

- ليبحث أحد عن النور، لماذا انطفأ.

- أدخل شمعة الآن للأستاذ.

دوامة مرت برأسه وهو يسمع كل الأصوات الآتية من المكتب الصغير الملحق بمكتبه.. وفجأة قال له الصوت القاسى فى التليفون:

- المقال يا أستاذ، انتبه، هو ابن خالتى.

وأغلقت التليفون، وانتهت المكالمة.

وسحب غريبة تجمعت فى رأسه، وهو لايرى الورق ولكنه يمسك بالقلم، ويضغط بسنه فوق الورق.

وفجأة انكسر سن القلم وصمت كل شىء.

الفهرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٢٣٤٤ / ١٩٩٧

I.S.B.N 977 - 01 - 5189 - 0

٣٥٠ قرشاً

مطابع الهيئة المصرية العامة